مصـــــر
والحـــركة العـــربية

تاليف

د . محمد عبد الرحمن برج

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر



إشراف : أ . د . يونان لبيب رزق
مدير التحرير : خلف عبد العظيم الميرى

الاخراج الفنى : مراد نسيم

تقـــديم

بينما تبدو « الفكرة العربية » وهى تتراجع باستمرار منذ السبعينات لتحل محلها « الروح القطرية » فان « مصر النهضة » منذ أن صدرت تقف فى صفوف أصحاب الفكرة رغم ما يتعرض اليه هؤلاء من استهزاء من بعض غلاة القطريين من جانب ، ومن اتهام بالعلمانية ، بعد ان اصبحت العلمانية تهمة (!) ، من غلاة المتدينين من جانب آخر ٠

يبدو هذا الانحياز من انه خلال السنوات القليلة التى صدرت فيها « مصر النهضة » كان من بين اصداراتها ٠٠ « تحول الفكرة العربية فى مصر » (العدد الحادى عشر) ، « مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال افريقيا » (العدد السادس عشر) ، « الدبلوماسية المصرية والقضية الفلسطينية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ » (العدد العشرون) ٠

ويصدر هذا الانحياز لدى القائمين على « مصر النهضة » من اعتقاد راسخ بانه لا ماضى لمصر بدون امتها العربية ، ولا مستقبل

لها دون القيام بدورها الطليعى داخل هذه الأمة ، ومن اقتناع يصل الى حد اليقين بان تراجع الفكرة العربية فى مصر او فى غيرها انما هو تراجع مؤقت وبفعل فاعل !

تأسيسا على هذا الفهم يجيء هذا العدد عن « مصر النهضة » عن « مصر والحركة العربية » للأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن برج أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة المنوفية ٠

والدكتور برج يتناول هذه العلاقة خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى ، وهى الفترة التى شهدت مولد هذه الحركة فى الشام وبدايات انتقالها الى مصر ٠

لعل ذلك هو الذى دفعه الى أن يخصص فصلا عن الشوام فى مصر ولعله ايضا هو الذى حدا به الى أن يتعقب مختلف الأنشطة العربية في البلاد خلال تلك الحقبة التى لازال الدور العربى خلالها فى مصر يشكل قضية خلافية ٠

ولقد أنهى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن برج دراسته تلك بفصل عن « موقف مصر من القضايا العربية » خصصه للموقف المصرى من قضية احتلال ايطاليا لطرابلس الغرب عام ١٩١١ ، ومع اننا نعتقد أن هذا الموقف قد انطلق بالأساس من مشاعر دينية وليست قومية فان لصاحب الكتاب رؤيته التى تستحق المناقشة ٠

ايضا قليلة هى الأعداد من مصـــر النهضة التى خلت من الحواشى منها هذا العدد ، وقد استعاض الأستاذ الدكتور برج عن هذا الخلو باحالة القـــارىء الى مجموعة المراجع التى يمكن ان يستزيد منها فى الموضوع ٠٠ اذا اراد !

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وبعد ..

فهذه دراسة أتشرف بتقديمها للقارىء العربى شغلنى العمل فيها حين من الزمان بعد أن أخذ البحث منى فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر فترة طويلة من عمرى بدأته منذ الستينات من هذا القرن وصدرت لى عدد من الكتب فى هذه الناحية .

كان القصد من وراء هذه الدراسة التى أتشرف بتقديمها اليوم توضيح دور مصر فى الحركة العربية . وليس القصد بالطبع التأكيد على عروبة مصر من وراء هذه الدراســة فذلك أمر مفروغ منه ومعروف ، انما الهدف أنه اذا كانت الحركة العربية فى عصـرها الحديث قد بدأت على أرض الشام فان مصر كان لها اســهامها الواضح فى هذه الناحية .

فعرضنا أولا فى هذه الدراسة الى حركة التحديث فى العالم العربى والتى بدأت بمصر بعد عرض موجز لما سبق هذا التحديث

وما كانت عليه البلاد العربية على العهد العثمانى ثم تناولنا بناء الدولة فى مصر الحديثة والتى جاءت على اثر التصدع الذى أصاب البنيان الذى كان قائما على العهد المملوكى العثمانى مع مجيىء الحملة الفرنسية ثم ليكمل محمد على من بعد ذلك وهو أحد أدوات النظام القديم هدم هذا البنيان ويقيم عليه الدولة الحديثة ، ثم يخرج ،بالتجربة من مصر الى بلاد الشام ليقيم عليها دولة شبيهة فى كثير من وجوهها بتلك التى اقامها فى مصر ٠

لقد أحدث الحكم المصـــرى لبلاد الشـــام تغييرات جوهرية واصلاحات مهدت السبل كى تصبح هذه البلاد الأرض التى تشهد بداية الحركة العربية فى عصرها الحديث ٠ وبرغم قصـــر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى ، فقد ارسيت فيه قواعد جديدة لم تكن موجودة من قبل : فانتهى الحكم السطحى وبدات الدولة تطبق نفس سياستها فى مصر بالتدخل فى شـــئون التعليم والقضـــاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة ٠ وانشئت المدارس لنفس الغرض الذى انشئت من اجله فى مصر وهو تقوية الجيش بالعناصر الصالحة ومن ثم توفرت أهم أدوات القومية وهى المدارس والجيش الوطنى الذى يلحق به المجندون من ابناء البلاد على اختلاف منازلهم وطوائفهم ٠

وحين انتهى الحكم المصرى لبلاد الشام لم يستطع العثمانيون ملأ الفراغ الذى تركه هذا الحكم حتى يمكن القول ان حروب الشام وما نتج عنها لعبت دورا هاما فى صدور حركة التنظيمات العثمانية والتى كان من اثرها انتشار موجة المدارس العثمانية فى الشـــام والعراق ونشاط الجمعيات التبشيرية الكاثولكية والبروتستانتية ٠

ومع ان منشور التنظيمات أعلن مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم ، الا أن الحكومة لم تستطع أن تطبق المبدأ تطبيقا مطلقا ، فظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين وحدهم بينما دفع المسيحيون الجزية ، كما ظلت الوظائف بصفة عامة ولاسيما الوظائف الادارية والقضائية محصورة فى يد المسلمين. وهكذا ادت التنظيمات الى زعزعة نظام الملل دون أن تدمجها فى كيان المجتمع اندماجا تاما . وأصبحت هذه المؤسسات مجالا خصبا للنشاط الأوربى الثقافى والدينى والسياسى . وكان لذلك أسوأ الأثر فى الولايات العربية لاسيما بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية ، وبينما كان المسلمون يتجهون الى السلطنة ظلت هذه الأقليات تتجه الى الدول الأوربية لحمايتها ، وبمعنى آخر انتهت التنظيمات الى توسيع الهوة بين المسلمين والمسيحيين حتى كانت المذابح التى شهدتها تلك البلاد .

وخرج أبناء الشام من بلادهم فرارا من تلك المذابح وقصد بعضهم مصر بينما قصدوها بعد ذلك فرارا من عهد السلطان عبد الحميد وعلى أرض مصر كان نشاطهم . وقد تناولنا رواد تلك الحركة العربية وما قاموا به على الأرض المصرية من تحرك كان له اثره الكبير على تلك الحركة . وكان لوجودهم فى مصر بالطبع اثره الكبير فى بروز دورهم ولم تكن لنقول ذلك بدافع من دوافع التعصب الوطنى وانما تركنا للأحداث ان تشرح ذلك فى موضوعية على قدر ما وفقنا الله .

ثم ختمنا بتلك الدراسة ببيان موقف مصر من احد القضايا العربية الهامة فى تلك الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى وهى قضية احتلال طرابلس الغرب من قبل الايطاليين واوضحنا مدى

مساهمة المصريين في نصرة اخوان لهم فى الجيرة واللغة والدين والتاريخ ٠

واذا قيل ان الدافع الدينى كان هو الدافع الأقوى لموقف مصر من التصـــدى للعدوان الايطالى على طرابلس الغرب ، فان الذى ينبغى توضيحه فى هذه الدراسة ان قضية الاحتلال الايطالى على طرابلس الغرب كانت من أهم قضايا الخلاف بين رواد الحركة العربية والاتحاديين ٠ ومن ثم فان علينا أن ننظر الى موقف مصر من هذه القضية على أنه كسب كبير للحركة العربية ٠ وكان من الطبيعى أن تتوقف الدراسة عند بدء الحــــرب العالمية الأولى ذلك ان تلك الحرب كانت منعطفا خطيرا وفاصلا كبيرا بين ما كان يجرى قبلها وما حدث بعدها من انهاء الحكم العثمانى للبلاد العربية ليبدأ بعده نضال لتلك البلاد فى مقاومة استعمار أوروبى جاء بفرض سلطانه على تلك البلاد ٠

والله الموفق ؟

الفصـــل الأول

بدء حركة التحديث في العالم العربى

حين نتحدث عن حركة التحديث فى العالم العربى ينبغى أن نشير فى ايجاز الى ما كانت عليه بلاد هذا العالم فى الفترة السابقة على هذه الحركة ·

كانت فلسفة العثمانيين فى حكم الولايات التابعة لهم حتى القرن التاسع عشر تقوم على اساس أن تتخفف الدولة بقدر ماتستطيع من أعباء الحكم المباشر · فتترك الرعية يديرون شئونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها · فاذا احتاجوا مثلا الى شىء من تعليم التمسوه عند من يحسنونه أو لا يحسنونه ، واذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين أو الجاهلين وأمور الزراعة يديرها أهل الفلاحة مع ملتزميهم · وأمور الصناعة تجرى على ما يرسمه أهل الحرف فى طوائفهم · والتعليم فى الأزهر والمساجد يسير على مألوف اعتاده العلماء والمجاورون من الطلاب · يجرى هذا كله دون أن تتدخل الدولة فى رسم سياسة معينة لشئون الزراعة أو الصناعة أو التعليم أو التطبيب الى غير ذلك مما تنهض به الدولة الحديثة ·

والدولة العثمانية قانعة بهذا . كلمة السلطان تذكر على المنابر مقرونة بالدعاء له بالتاييد وباسمه تنفذ الأحكام وتجرى الحدود ، وانحصرت وظيفة الحكومة فى أضيق نطاق ، الدفاع عن البلاد اذا هددت بغزو واقامة الحدود بين الناس وجباية الأموال .

وسعت الدولة فى ضبط العلاقات الأوروبية العربية وتوجيهها فى أوضاع محددة اتقاء الفتنة ، عندما رأت أوربا تتحرك وتحاول أن تمديدها الى الشرق الأدنى بتلك المشـروعات والمحاولات التى بذلها افراد من الأوربيين المغامرين من جنســيات مختلفة لأحياء الطرق البحرية (العربية) التى كانت قد هجرت لتستخدم بدلا منها رأس الرجاء الصالح .

فلما بدأت محاولات احياء الطرق القديمة للتجارة (طريق البحر الأحمر السويس) رفض السلطان العثمانى رفضا باتاان يسمح للسفن الأوربية أن تبحر فى البحر الأحمر الى ابعد من ميناء جده شمالا . وحرم على السلطات الحاكمة فى مصر استقبال ســفن أوربية بالسويس والاذن لركابها باختراق الأراضى المصــرية فى طريقهم الى الاسكندرية .

كما أن ضعف البحرية العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر كان مسئولا عن انهيار السيطرة العثمانية على اليمن وخروج الأتراك منه على يد ائمة صنعاء فى عام ١٦٣٥ . وكا نهذا الضعف مسئولا عن عجز العثمانيين عن بسط سلطاتهم على الامارات العربية فى الخليج العربى وبالتالى عجز العثمانيون عن بسط نفوذهم الى داخل الجزيرة العربية ، بعد أن أعوزتهم القواعد على البحر الأحمر والخليج العربى ، ولم يبق للأتراك فى شبه الجزيرة العربية الا الحجاز وكان للأشراف السلطة الفعلية عليه .

وكان لضعف السيطرة البحرية العثمانية فى البحر المتوسط منذ القرن السابع عشر نتائجه الخطيرة على مستقبل بلاد المغرب العربى فضعفت أسباب الاتصال بينها وبين السلطة العثمانية ووهن سلطان الدولة على ولاياتها العربية ٠

وعلى هذا لم يبق للدولة العثمانية من ملكها العربى سوى عصر والشام والعراق والحجاز بعد أن انكمشت سلطاتها بخروج اليمن وامارات الخليج ومشيخاته وانهيار السلطة العثمانية على الولايات الغربية ٠

فى هذه الولايات العربية (مصر والشام والعراق والحجاز) يرسل السلاطين نوابا عنهم لحكمها (هم الباشوات) ٠

وكان من المتوقع مع ضعف القبضة العثمانية على الولايات العربية أن يبرز الى الوجود الفكر القومى لكن حال دون ذلك أمران :

الأول : الشعور العام بالانتماء الى عالم كبير أكبر من الوطن العربى ذاته هو العالم الاسلامى وكان هذا الاحساس وهذا الشعور من شانه عرقلة نمو الفكر القومى بل سيظل لدى الكثيرين ان مفهوم العثمانية والاسلام شىء واحد حتى قيام الحرب العالمية الأولى ٠

الثانى : تأخر حركة التحديث فى العالم العربى لتسبقه أوربا بقرون عديدة ومن شأن التحديث أن يبرز سلطان الدولة وكيانها ومفهـــومها ومقوماتها وهو أمر افتقده العالم العربى حتى القرن التاسع عشر ٠

وكانت مصر أولى الولايات العربية التى تشهد حركة التحديث ثم تنقل التجربة المصرية الى أرض الشام فى كثير من وجوهها على عهد محمد على ٠

عاشت مصر طوال قرون ثلاثة تحت الحكم العثماني (من القرن السادس عشر الى التاسع عشر) دون أن تتعرض لأحداث خطيرة كغزو خارجي أو نكبة عامة من شأنها أن تثير بين الناس الاهتمام العام وتحفزهم الى التفكير المشـــترك والعمل الجماعي لمواجهة الحدث الخطير وهذا كله من أقوى العوامل في بناء الرأى العام والقومية الواحـــدة • والأمثلة كثيرة في التاريخ الأوربي الحديث • خذ مثلا الأراضي المنخفضة وكيف كانت تحديات البحر وسطحها المخفض عنه حافزا لدى ابنائها للعمل المشترك لمواجهة خطر هذا البحر الأمر الذي قوى الاحساس القومي لدى ابنائها • كما كان شحذ همم الأسبان لطرد المسلمين من الأندلس ومن آخر معاقلهم في غرناطة عام ١٤٩٢ حافزا لتقوية الشعور القومي • ثم حروب المائة عام بين كل من فرنسا وانجلترا التي كان من شأنها تقوية الروح القومية لدى الفرنسيين لطرد الانجليز من أراضيهم بل أن الهزيمة التي مني بها الانجليز في تلك الحرب وما أعقبها من حروب أهلية (حرب الوردتين) لعبت دورها في تدعيم الروح القومية وتدعيم سلطة الملكية معا على يد أسرة التيودور • لم يحدث شيء من هذا في مصر من هذه القرون الثلاث ، لم يشهد المصريون الا أحداث (محلية) لم يكن من شأنها مهما بلغ بعضها من العنف ما يثير الاهتمام العام بين المصريين قاطبة •

وبقيت كل طائفة أو كل اقليم بل كل مدينة أو قرية تواجه ماينزل بها بوسائلها الخاصة حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر التي مهدت للقضاء على هذا النظام العثماني المملوكي باضعاف عنصرية الأساسيين السيطرة العثمانية والاستبداد المملوكي •

عاش المصـــريون في ظل هذاالنظام وليس أبدع في الوجود مما هو كائن لا يرقى اليهم الشك في قوة السلطة العثمانية والأمراء

وقدرتهم على حماية بلادهم • حقيقة حدثت ثورات فى مصر قبل الحملة الفرنسية على مصر لكنها لم تتجاوز الطابع المحلى ولم يكن شعارها أبدا الخروج من نطاق السيادة العثمانية •

وجاءت الحملة الفرنسية على مصـــر فاذا بالمصريين يرون مدافع الفرنسيين تقصف بالقوات المملوكية وتفر من امامها منهزمة ويترك أحد زعماء المماليك الساحة الى الشام والآخر الى الصعيد • وهكذا تسرب الشك الى نفوس المصريين فى قوة النظام الذى خضعوا له قرونا طويلة • كانت غزوة بونابرت أول غزوة (أجنبية) تعرضت لها مصر منذ أيام الحروب الصليبية ، فكانت بمثابة انفجار كبير دوى فى سمع المصريين وفى ظل المقاومة الوطنية تقاربت طوائف المجتمع العربى ، وفى هذا التقارب بزغ فجـــر جديد من الوعى القومى كان هو أحد المعاول التى ساعدت على هدم النظام القديم •

ومهما كان اختلاف المؤرخين والكتاب بشأن الآثار التى خلفتها الحملة الفرنسية على مصر ، فالذى لا شك فيه أن هذه الحملة برغم الفشل الذى منيت به والثورات التى واجهها بها الشـــعب المصرى كانت بدء الاتصـــــال بين شرق عربى منغلق وغرب أوربى متفتح •

ان من الخطأ أن تنكر أن الحملة لم يكن لها أى تأثير ولكن من الخطأ كذلك المبالغة فى هذا التأثير •

جاءت الحملة ففاجأت المصريين والدولة العثمانية وهذا يدل على جهل الناس حتى رجال الحكم بتطور العلاقات الدبلوماسية بين الشرق والغرب • حقيقة وصلت انباء عن الثورة الفرنسية تجد لها اشارات فى الجبرتى وفى نقولا الترك وتجد اشارات لما صاحب هذه الثورة من قبل الملك والملكة والاشراف •• الى آخره لكن لم يكن

هناك المام بتطور السياسة الفرنسية أو تطور الحرب بين فرنسا وانجلترا ، هذا التطور الذى أدى الى تحول الفرنسيين لغزو مصر • وأصبحت مصر رغم انفها مسرحا وعنصرا رئيسيا فى السياسة الدولية •

جاء الانجليز الى مصر لطرد بونابرت ولكنهم لم يخرجوا بعد خروج حملته فبقوا عامين آخرين (١٨٠١ - ١٨٠٣) ولولا الضغط الفرنسى لاخراجهم ما كان هذا الخروج • ثم اذا بهم يعودون بعد أعوام أربعة بتلك الحملة المعروفة بحملة فيريزر ١٨٠٧ ، أى أن مصر شهدت خلال فترة لا تزيد عن عشر سنوات ثلاث غزوات خارجية • وهكذا انتهى عصر أغلقت مصر على نفسها الأبواب أو أصبحت الدول الأوربية تتنافس على امتلاك هذا الموقع الهام فى المواصلات الدولية مستغلة ضعف الدولة صاحبة السيادة على مصر •

ولسنا بصدد تفصيل الآثار العلمية والسياسية والاجتماعية التى جاءت بها الحملة فذلك كله معروف مدروس لكننا نريد التركيز فقط على أن من أهم نتائج الحملة هو زعزعة ثقة المصريين فى قدرة النظام القائم على حمايتهم •

حدث الالتحام بين جيش فرنسا الثورة بقيادة بونابرت وجيش المماليك الذين استهانوا بقوة هذا الجيش الغازى وظهر هذا عندما علم مراد بك بنبأ نزول الفرنسيين الاسكندرية وقوله انه ذاهب ليدوسهم بخيله وسيلقى بهم فى البحر • ولم يكن لدى المماليك من ذكريات عن الفرنسيين الا منذ أيام الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع • لم يدرك المماليك أن الانتصار الذى تحقق فى القرن الثالث عشر على الغرب الأوربى ما كان له أن يتحقق فى أواخر القرن الثامن

عشر • لقد صار الحال غير الحال • دخل العالم العربى فى حوزة العثمانيين وانتقلت زعامة هذا العالم ممثلة فى الخلافة الاسلامية الى الاستانة ، وما صحب هذا من انزواء العرب فى المجال الدولى سياسيا وعسكريا واقتصاديا خاصة بعد تحول طرق التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وما صحب ذلك من أســاليب الحكم العثمانى التى أشرنا اليها من بقاء كل شىء على ماهو عليه دون تطوير • يقابل هذا فى الغرب الأوربى فى هذه القرون الخمســة تطور ســريع ، فالجنود الذين قادهم بونابرت يختلفون من حيث التسليح عن جيوش لويس التاسع فأسلحة الأول أشد فتكا والفرسان والمشاة والمدفعية بتنظيم وتكتيك جديد ، وولاؤهم للدولة لا للجماعات والأشراف ومن اليهم وجيش بونابرت لم يعد ذلك الجيش الاقطاعى الذى كان عليه أيام لويس التاسع وفرنسا الثورة غير فرنسا العصور الوسطى وما صحب ذلك من نهضة فى الصناعة والتسليح • بينما كان هذا بعيدا عن مصر والعرب فى هذه القرون الخمسة فكانت النتيجة معروفة انتصار القوة الحديثة والحضارة الجديدة على القوة الاقطاعية وعلى حضارة العصور الوسطى •

والواقع أنه منذ ذلك الوقت تبدد الوهم الذى يخيم على العقول فى الشرق وأدركوا أن أوربا أقوى وأن على أبنائه أن يبحثوا عن سر تلك القوة ليصطنعوها ويقتسبوها • وهذا الاحساس هو بداية الطريق على طريق القومية •

حاول الفرنسيين أن يبعثوا قبسا أو شعاعا من الروح للقومية لدى المصريين منذ وطئت أقدام بونابرت مصر • أخذ يحدث المصريين عن بلدهم وأمجادها القديمة وحضارتها وفضلها على العالم وكان من بين ما قاله مثلا لماذا يأتى القاضى من القسطنطينية وفى بلدكم

الأزهر وعندكم علماء الاسلام وفعلا اختار أحد القضاة قاضيا لمصر ولكن الناس لا ترضى بغير قاضى القسطنطينية ٠

واذا كان بعض الكتاب يبالغ فى دور الدواوين التى أوجدها الفرنسيون فى مصر وأنها كانت لتعويد الناس حكم أنفسهم بأنفسهم فذلك كله من قبيل المبالغة فالمعروف انها وغيرها من الاصلاحات قصد بها مصلحة الحاكم وحده ٠

والرجوع الى تاريخ الجبرتى هام فى هذه الفترة لمعرفة كيف تأثر بما شاهده لدى الفرنسيين من أمور أثارت انتباهه كالمكتبات أو أثناء محاكمة سليمان الحلبى أو أبحاث العلماء وغيرها ، كان الجبرتى يملك موهبة سيكلوجية وشفافية نفاذة مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء ٠ فالمماليك ارقاء دخلاء استجلبوا الى مصر من القوقاز ، والعثمانيون كذلك دخلاء بما فيهم الانكشارية الذين كانوا يروضون باستمرار والفرنسيون عنده أيضا دخلاء أتوا من بلاد الفرنجة لكنهم بدوا فى نظر الجبرتى عام ١٧٩٨ متطفلين وكأنهم وفدوا من عالم آخر كما أنهم كانوا أشد تهورا فى اعتدائهم على الحرمات الاسلامية فى استهانتهم بالتقاليد والعادات الموروثة ٠

وعندما عمد الفرنسيون الى التأثير على المصـــريين باقامة منجزات للعلوم الأوربية زار الجبرتى هذا المعرض ولم يســـتثر اهتمامه ٠ ووصف المعروضات بأنها لعب أطفال للتأثير فنيا لكننا لن نخدع ببساطة ٠ وعندما اغتيل القائد العام للقوات الفرنسية الذى خلف نابليون اقيمت للقاتل محاكمة عادلة قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه وشـــهد المحاكمة وأثرت فيه عدالة المحاكمة ٠ تعجب الجبرتى لأنهم لم يقتلوا القاتل توا وفى الحال على الرغم من انه قتل كبيرهم وسارى عسكرهم ثم بعد هذا تجرى محاكمته ٠ هذا

أسلوب جديد فى اجراء العدالة لم يعرفه المصريون من قبل انما فيماعدا هذا لا يظهر الجبرتى ارتياحا لما جرى عليه الفرنسيون فى حياتهم الاجتماعية وفى لهوهم وخروجهم والمسارح التى انشأوها ·

اخذ المصريون عليهم أنهم تسببوا ــ بما كانوا يظهرونه من انواع المجون والخلاعة فى مهرجانات اعيادهم وفى مراقصهم ــ فى افساد أخلاق أهل البلاد وتشـــجيع العامة على أتيان المخازى والمعاصى ومشاركتهم فى ارتكاب الآثام ·

ولم يفهم المصريون السر من وراء اصـــلاحات الفرنسيين فتصدى الكثيرون لها من كنس الشوارع واضاءة الحارات والأسواق بالقناديل وفى ذلك يقول الجبرتى ·

« واذا مروا بالليل ووجدوا قنديلا اطفأه الهواء أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما احبوه من الدراهم » ·

وكان من الممكن أن تؤتى هذه الاصلاحات ثمرتها المرجوة لو أن هناك أرضا مشتركة بين المصريين والفرنسيين وتفهم الفرنســـيين لنفسية هؤلاء المصريين الذين كرهوا كل ما جاء به (الكفار) الذين احتلوا بلادهم وهم المسلمون الأفضل منهم عقيدة وايمانا ·

لكن يمكن القول انه اذا كانت الحملة الفرنسية قد هزت النظام القائم وزعزعت الثقة فى هذا النظام فان الضربة الأخيرة لهذا النظام العثمانى المملوكى جاءت على يد أحد أدوات هذا النظام وهو (محمد على) ·

وبدأت عملية بناء الدولة الحديثة فى مصر • ولم تكن عملية الهدم سهلة أو ميسرة فالعناصر التى كان يتألف منها النظام مازالت فى قوتها وكفائتها رغم ما أصابها من ضعف وتخاذل وفقدان للمنفعة والايمان بها • وتباشير الوعى القومى الذى افرزته الأحداث التى مرت بالبلاد منذ عام ١٧٩٨ لم يكن من القوة والنضوج بحيث يكفى للقضاء على النظام القديم أو التصدى له • وتألبت على الحاكم الجديد أصحاب المصالح المكتسبة من الأجناد والأمراء والملتزمين والعلماء وزعماء العشائر البدوية وغيرهم كثيرين •

وفى الحقيقة لم يكن هدم النظام القديم هدما لبناء من طوب وحجر انما هو هدم لعقلية ونفسية شعب عاش فى أوضاع وقوالب معينة ثلاثة قرون ثم أوقظ فى عنف وغلظة ليشـــهد تحطيم هذه الأوضاع والقوالب وقد كانت عزيزة عليه رغم انه لم يكن سعيدا بها لكنه بدأ يشهد حكومة من نوع آخر ، مكونة لضبط كل شىء •

وعانى محمد على كثيرا وهو يتلمس الأدوات الصـــالحة للبناء ، تلمسها فى رجال من العهد القديم وتلمسها فى أخلاط من الغرباء الذين توسم منهم المعرفة أو الخبرة ومن أوربيين وأرمن وغيرهم ولكنه أدرك آخر الأمر ان البناء لن يقوى عليه غير أهله فراح يعمل على ايجاد الأدوات الصالحة للعمل من المصريين فانشأ المدارس كما أنشأ الجيش الوطنى ومهد بذلك لابناء البلاد سبيل العمل فى دواوين الحكومة ومنشآتها وحملهم شـــرف الدفاع عن بلادهم وعلى هاتين القاعدتين المدارس والجيش أو العلم والقوة قام بناء النهضة المصرية الحديثة فى القرن التاسع عشر •

ومضى المصريون على عهده فى اتخاذ سياسة خارجية نشطة تهدف الى تكوين ملك عضود له ولأبنائه من بعده •

مما لاشك فيه أن فتوح محمد على للشام والسودان من قبله كانت تهدف قبل كل شيء الى تأمين مصر نفسها • لكنه لا يمكن القول أن محمد على فى فتوحه كان يهدف الى تدعيم القومية العربية• حقيقة الأمر ان محمد على اكتشـــف امكانيات العالم العـــربى وخصائصه المميزة وان ابنه ابراهيم حاول أن يثير العاطفة العربية وليس ثمة فرق فى الحقيقة بين الأب والابن فى الأهداف فقد كانت فكرة الوصول الى ملك وراثى تستحوذ على تفكيرهما •

يصعب على المؤرخ أن ينسب الى محمد على ـ وهو الذى كان يفاوض فرنسا على غزه والجزائر لحســـاب فرنسا وبأموالها أى تفكير قومى عربى •

واما ما أورده الأستاذ الرافعى من قول ابراهيم عندما سئل الى أى مدى ســـتصل فتوحاته بانه الى المدى الذى يتكلم الناس ويتفاهمون بلسان عربى فليست اذا كان قد قالها ابراهيم حقيقة الا شعورا منه بأهمية المنطقة التى اقدم على فتحها (بلاد الشام) وارتباطها الكبير بمصر •

لم تختلف حرب الشام فى دوافعها الحقيقة عن دوافع أية حملة أخرى لمحمد على لكنها كانت بعثا للكلام عما سماه البعض نوايا محمد على (العربية) وأهدافه فى ازكاء روح القومية العربية • فهناك من قال ان حلم اقامة امبراطورية عربية قد راودته ســـنوات طوال قبل حرب الشام وأنه واضع اللبنة الأولى فى الوعى العربى •

ويحمل أنيس صايغ غايات محمد على من هذه الحرب كما وردت فى المحفوظات التاريخية وحسب تعبير محمد على نفسه على النحو التالى « اعادة الأمن الى نصابه واسترجاع حقوق عزيز

مصر • وعمل الخير للأمة الاسلامية لخروج العثمانيين على الدين والشريعة وتخليص البلاد من الفساد ودفع المصائب التى أنزلها العثمانيون بالمسلمين وتوحيد كلمة المسلمين والمحافظة على شعائرهم وتقاليدهم وابقاء العائلة وتأمين سلامة الحدود وخدمة الدين والدولة واحباط مساعى خصوم العزيز وخصوم عائلته وتخليص البلاد من الظلم والغدر وخلع السلطان محمود واتقاء نار الفتنة وانقاذ الأمة الاسلامية من كارثة التشتت والاضمحلال وتخليص المسلمين من نير الظلم وتحصيل استراحاتهم ورفاهيتهم وتحديد الحدود وتأمين الضبط والربط » •

وليس فى ذلك شيئا من الفكر العربى أو غير ذلك مما يحاول بعض المؤرخين والكتاب تحميله للأحداث •

واذا ذكر بعض الكتاب ان ابراهيم باشا قد ذكر فى أحاديثه ان شمس مصر قد غيرت منه وجعلته عربيا وعلى فرض انه ذكر ذلك فلم يكن ذلك عن ايمان بالعروبة أو اقتناع بها بقدر ما هى فكرة أو سبيل لتمكينه من فتوحاته • ومن هذا المنطلق يرى بعض المؤرخين ان محمد على كان يعرف أهمية أن تضم الولايات العربية تحت حكمه وانه لم يتشبث بحكم المورة كما تشبث بحكم الولايات العربية • وانه لم يقنع فى الجزيرة العربية بفتح الحجاز بل سعى الى فتح كل الجزيرة فيما عدا مناطق منها فى الجنوب وعلى ساحل الخليج العربى ثم لما واتته الفرصة لضم ولايات الشام تحت حكمه لم يتردد •

يرى المرحوم الأستاذ / شفيق غربال ان محمد على بعد حرب اليونان قل وثوقه بامكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة والقسطنطينية وزاد ايمانا بان محمودا (السلطان محمود الثانى)

ورجاله يسيرون قوما نحو الهاوية ، فأحب أن يتخذ العدة للمستقبل وان يتخذا الضمانات اللازمة ·

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوى فى العالم العثمانى ولدى الحكومات الاوربية بالمضى فى سياسته العمرانية ، ونشر حكمه المباشر فى أقطار أخرى من العالم العثمانى بقيه كلهاشر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الأمن والموارد التى تستطيع بها أن يكون على حال من القوة تمنع عنه أطماع الطامعين · وهذه الاقطار هى الولايات الشامية الأربع حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية فى الجزيرة العربية على الخليج والبحر الأحمر · هذا أكبد والعراق والمناطق فيما بين الشام والاناضول · هذا مما يترك للظروف · ثم يتساءل فهل تصور لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية ؟ ثم يجيب المرحوم غربال على ذلك بقوله · سؤال كبير ان أجبنا عنه سلبيا عدونا الصواب ونسبنا اليه قلة ادراك لعناصر وروابط بارزة ، لغة واحدة ، وارث ثقافى مشتركة ومصالح مشتركة وبالنسبة للحياة الاقتصادية كتلة واحدة · وان أجبنا عنه ايجابا عدونا الصواب أيضا لبعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ماهو ، على وجه التحقيق، من خلق العصور اللواحق وقد نعدو الصواب ان قلنا ان محمد على أدرك الفكرة فى عمومها وانها مما يمكن التشييد عليه فى حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يكن قد قرره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحال ان حتمت ظروف التقسيم أمكنه ان ينقض ماحدث فى القرن السادس عشر وبناء العالم العربى من جديد ، ولكنه لم يكن قد يئس بعد من مستقبل الوحدة العثمانية وان كان قد يئس من السلطنة ·

ويرى بعض المؤرخين ان محمد على انتهز فرصة طلب السلطان له باعداد حملته ضد الوهابيين الى أن يجعل لنفسه كيانا خاصا

قبل ان يقوم بحملته فى (بلاد العرب) فاقترح على الباب العالى بواسطة وكيله المقيم فى الاستانة أن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها فى ذلك شأن ولاية الجزائر ، وأوضح له ان هذا الاجراء ضرورى حتى تنتهى الحرب فى الحجاز ، وتذرع فى طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية فى أوربا واحتمال تدخل الدولة العثمانية فى بعض الحروب ، فاذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة ، فقد تقع فريسة حصار احدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة فى الجزيرة العربية ، وضرب لذلك مثلا باحتمال محاصرة انجلترا للموانى المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر وتتعرض أيضا مصالح الحرمين ، وحيث ان تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها فان امتيازها يضمن حيادها ومصالحها الاقتصادية .

توضح الوثائق العربية المحفوظة فى دار الوثائق القومية طموح محمد على الى السيطرة على الشام قبل أن يقوم بأى حرب فى الحجاز وقد طلب الى الباب العالى أن تحال اليه ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه الى بلاد العرب لكى يسوق حملتين ، احداهما تخرج من مصر والأخرى من الشام ، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التى كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجرىء صداه العنيف فى بلاط السلطان ، واتهمه اعداؤه وحاسدوه هناك بانه يغلب مصالحه الشخصية واطماعه الأقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا أن حملة يقوم بها الباشا أو ابنه ابراهيم من مصر ، كفيلة بارجاع بلاد العرب الى حكم السلطان ، وقد رد محمد على على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالى فى كتاب بعث به الى وكيله محمد نجيب أفندى فى الأستانة يقول فيه :

«ان ردى على هؤلاء هو قصة جحا المشهورة عندما بعث ابنه لملأ الجرة وصفعه على قفاه قبل أن يحملها منبها اياه الا يكسرها»

ولما قيل لجحا لماذا تصفعه ولم يكسر الجرة بعد ، اجاب أنه يجب ان ينبه ويصفع اولا حتى لا يكسرها • اذ ماذا يفيد الصفع بعد كسر الجرة •• ، وكتب له فى خطاب آخر ان مصلحة الحجاز فقط هى التى دفعته الى هذا الطلب وان ليس له مطمع فى غير مصر التى وصفها بانها (القطر الذى ينحسر وزراء الدولة دون الوصول اليه) •

وأخيرا قرر محمد على أن يغض الطرف مؤقتا عن تمسكه بولاية الشام بعد ان فهم من مقابلة وكيله نجيب افندى للصدر الأعظم ان جميع طلباته لا يمكن النظر اليها بعين العطف والرعاية الا بعد أن تقوم الحملة المصرية الى الحجاز •

وتوضح الوثائق البريطانية أن محمد على كانت لديه النية لفتح الشام قبل أن يقدم على ذلك الفتح بوقت كبير • فقد صرح سنة ١٨١٢ للقنصل الانجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة • بيد انه لم يقدم لأسباب اظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة ونجدته السلطان فى حرب الجزيرة العربية •

بما لاشك فيه أن محمد على كان يعد العدة لاقامة حكم قوى يكون مركزه مصر ويمتد منها الى البلدان العربية المجاورة •

اثبت الجنرال بيويه Boyer رئيس البعثة العسكرية الفرنسية فى مصر فى رسالة الى الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو ١٨٢٥ ذلك بقوله :

انهيت اليك فى كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا فى اليونان واود أن اطلعك الآن على حديث سرى دار بينى

وبين محمد على حدثنى خلاله عن أمانيه قال محمد على : أنا أعرف ان السلطنة تسير يوما فيوما الى الردى ، وانه على أن أنشلها مما هى فيه • فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى ساقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدى كل الوسائل التى تساعدنى على الفور ، انى أستطيع أن افتح عكا ، ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى ، وابنى المنتصر سيتوجه فى اقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لانها حدود ثابتة للدولة التى اسعى فى انشائها وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز •

ولم يكن امتناع الجزار عن ارجاع الفلاحين المصريين الذين هاجروا الى عكا فرارا من دفع الضرائب وهروبا من خدمة الجيش الا احدى الذرائع التى تذرع بها لشن حملة الى الشام •

ولسنا فى مجال دراسة الأسباب الحديثة التى يجهد المؤرخون انفســـهم فى البحث عن الذرائع التى تذرع بها محمد على لحملة الشام ، ولا فى دراسة التفاصيل الخاصة بتلك الحملة •

انتهت الجولة الأولى فى بلاد الشام باتفاق كوتاهية ١٨٣٣ الذى تم فى فبراير من ذلك العام والذى اعترف به السلطان لمحمد على بالولاية على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليا على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية اطنة •

لكن السلطان لم يكد يوقع صلح كوتاهية حتى أخذ يســـتعد لجولته الثانية مع محمد على بعد عقد معاهدة (انكاير سكله سى) فى ٨ يوليو من نفس العام الذى وقع فيه الصلح (١٨٣٣) والتى كانت عبارة عن تحالف دفاعى بين تركيا وروسيا لمدة ثمانية أعوام

وكانت الجولة الثانية وفيها انتصرت الجيوش المصرية انتصـــارا حاسما واقتربت من الاستانة وسلم الأسطول العثمانى نفسه لمحمد على ورســـت سفنه فى مياه الاسكندرية ولم تصل أخبار الهزيمة للسلطان لأنه توفى قبلها وجاء من بعده ابنه السلطان عبدالمجيد ٠

ثم تطورت الأحداث على أثر هذا النصـــر الجديد للقوات المصرية وقام بالدور الرئيسى فيها بريطانيا التى لم توافق على وجود دولة قوية فى طريقها الى الهند ، كذلك كان اهتمامها قد بدأ الى جانب طريق برزخ السويس بالطريق البرى الآخر الذى يصـل اقليم الرافدين والخليج العربى بساحل سوريا وكان الكابتن شسنى قد بدأ تجاربه فى تسيير الســـفن فى نهر دجلة والفرات ولم تكن بريطانيا ـ وهى ترغب فى بقاء الدولة العثمانية كسد منيع أمام التوسع الروسى ترضى أن تتلقى هذه الدولة العثمانية تلك الهزيمة من محمد على وما يمثله انتصاره من خطر يهدد مواصـــلاتها ويتعارض مع مصالحها الاقتصادية خاصة وان الدولة العثمانية آنذاك قد أصبحت سوقا عاما للصادرات الانجليزية ٠ ولاحظ القنصل الانجليزى فى دمشق أن دولته ستفقد هذه المزايا فى حالة قيام محمد على ـ بعد أن يسيطر على الامبراطورية العثمانية بتطبيق نظامه لاحتكار التجارة الخارجية وبرنامجه الخاصة بالتصنيع ٠

وتزعمت انجلترا الوقوف فى وجه محمد على وخاصة حين تولى وزارة خارجيتها اللورد بالمرستون وكانت نتيجة مســـاعى انجلترا على نحو ماهو معروف معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ أو وفاق لندن بين انجلترا وروسيا والنمسا وروسيا وتركيا وكان هذا الوفاق أول وثائق التسوية التى وضعت للمسالة المصرية ٠

لقد احدث الحكم المصرى لبلاد الشـــام تغييرات جوهرية واصلاحات مهدت السبل كى تصبح هذه للبلاد الأرض التى تشهد بداية الحركة العربية فى عصرها الحديث ورغم قصر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى فقد أرسيت فيه قواعد جديدة لم تكن معروفة من قبل اذ انهى ابراهيم عهد الحكم السطحى وبدات الدولة تطبق نفس سياستها فى مصر بالتدخل فى شئون التعليم والقضــــاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة • فانشئت المدارس لنفس الغرض الذى انشئت من اجله فى مصر وهو تغذية الجيش بالعناصر الصالحة كذلك اصبح التعليم باللغة العربية وهو نفس الشىء الذى أصر عليه محمد على فى مصر • وصار الطلبة يقيمون فى هذه المعاهد حيث يقدم لهم الى جانب السكن - الملبس - المأكل علاوة على التعليم المجانى ثم تدفع لهم الدولة رواتب بالاضافة الى كل ذلك ويرتدى الطلبة أزياء موحدة ويتدربون على الفنون العسكرية وخاصة فى مدرستى دمشق وحلب حيث بلغ عدد طلبة الأولى ٦٠٠ طالب والثانية ٤٠٠ •

ومن المعروف أن من أهم أدوات القومية هى المدارس العامة والجيش الوطنى الذى يلتحق به المجندون من ابناء البـــلاد على اختلاف منازلهم وطوائفهم فضلا عن الصحيفة المتداولة والكتاب المنشور والغاء الطوائف وصهر أبناء الأمة فى بوتقة واحدة •

لم يعد التجنيد وجباية الأموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها ببعض المقاومة أو بشىء من الرشوة •

وسيطرت الدولة بشكل فعال على التجارة لاســيما التجارة الخارجية تدخلت فى تنظيم الزراعة فاهتم ابراهيم بالفلاحين وعمل على ما فيه خيرهم فأمنهم من ظلم الحكام ونهب البدو اوعتدائهم

فصاروا سعداء لعدم تعرضهم للجور الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك رغب ابراهيم باشا البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى المهجورة وأرغم بعض القبائل الرحالة على الاقامة فى سهل انطاكية لزراعته على حسابه الخاص وبذا تحول آلاف من البدو الى زراع .

كذلك أعتنى ابراهيم بانشاء بنك زراعى وأقام صرافا فى كل من حلب واطنة ودمشق ومعه خمسمائة آلاف جنيه لتسليف المال اللازم للزراع المحتاجين كما أعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا القرى المهجورة لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفاءهم من الضرائب ثلاث سنين وقدم فى ١٨٣٦ للفلاحين المساعدات الآتية : ٣٢٠ر٤٠٠ قرشا ٤٤٧ شنبلا من القمح (الشنبل ٥٠ رطلا) و ٢٠٧ شنبلا من الشعير .

وأدخل الكثير من الخضر الجديدة وبخاصة البطاطس كما زاد محصول القطن وصار الحرير وتربية دود القز لاستخراجه منه موضع عنايته الخاصة . صار الحرير المحصول الرئيسى للشام وعماد ثروتها ينتج بالأخص فى مناطق صيدا وبيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس اللاذقية وانطاكية تلك الاقاليم التى توجد لها مزارع واسعة من أشجار التوت والتى زادت كثيرا أثناء الحكم المصرى .

واذا كان الاهتمام بالصناعة دون الاهتمام بالزراعة فانه مع ذلك استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسى للمصانع . ففى سنة ١٨٣٦ استهلك نحو ١٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام فى مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماه وبيروت ودير القمر وصيدا ، كذلك انشىء فى صور مصنع نسيج الصوف وعمل ابراهيم على ادخال طريقة أكثر اتقانا لاستخراج زيت الزيتون فى طرابلس وما جاورها فخلت معاصر الزيوت من فرنسا واستخدم عمالا أوربيين فى العمل . كما بذل الحكم المصرى جهودا جبارة فى

الكشف عن المعادن ٠ ففى لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيدا من الفحم الجيرى وفى الشمال اختبر بعض النمســـاويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بها ٠

هكذا وقد أدت العناية الخاصة بالزراعة الى نشاط التجارة فزادت التجارة زيادة مستمرة ، كما تأثرت التجارة الداخلية تأثرا عظيما من زيادة الانتاج الزراعى وتقدم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزا عظيما للتجارة مع بغداد والبصرة والفرس والبلاد المجاورة ، كما زادت تجارة حلب زيادة كبيرة وأصبحت مصر الأولى فى تجارتها مع الشام وقد امتازت سياسة ابراهيم باشا التجارية فى الشام بزيادة الانتاج الزراعى من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبالغاء ما كان موجودا من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وتنظيم توزيع الضرائب ، وقد عمل ابراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مركبا للملاحة فى نهر الأورنت حتى انطاكية وكانت حرية التجارة من قواعد الســـياسة المالية فى الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشامين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق ابراهيم لمبادىء الحرية كل ذلك كان مضادا لانشاء الاحتكارات فى الشام ٠ غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما انشأ ابراهيم – بناء على أوامر والده – احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع ذلك فقد منح حرية تصدير الباقى بعد ذلك الى الخارج ٠

ومضت ثمان سنوات للادارة المصرية فى بلاد الشام يقول المؤرخون عنها (ابتسم فيها وجه الضعيف لأنه شعر بالانصاف) » ورضيت الطوائف المختلفة عن هذه الاصلاحات لاسيما المسيحيين منهم ، فقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة ، وأباح للافرنج دخول دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات

فيها ، ورفع اعلام تحمل شارة الصليب ، كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين أمثال بطرس كرامة وحنا البحرى وعهد اليهم بادخال تنظيمات افرنجية وترتيب مجالس ملكية وعسكرية ومدنية حديثة » ٠

وساوى ابراهيم باشا بين جميع أفراد الشعب فى بلاد الشام لا فرق فى ذلك بين مسيحى أو مسلم أو يهودى ولم تكن هذه المساواة موجودة من قبل ٠

ومن أهم ما أدخله ابراهيم باشا من اصلاحات أنه الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الأمراء والمشايخ والاقطاعيين الأخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد ، فالف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها عن عشرين الفا نسمة مجلسا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ ـ ٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلاد وتجارها ٠

ومما لاريب فيه أن هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتها ومعاونتها فى تحصيل الأموال المطلوبة (الميرى) لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريقة تعويد الأهالى أسلوب الحكم الشورى ٠

فصل ابراهيم بين منصب قائد الحملة ومنصب مدير لادارة بلاد الشام ورشح لهذا المنصب الأمير اللبنانى الكبير بشير الثانى، وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد (ابراهيم باشا) من والده تعيين محمد شريف (بك) فلبى شريف الدعوة واتخذ لنفسه لقب حكمدار الآلايات الشامية أو كتخداى خديو أعظم وحكمدار آيالات عربستان ٠ ومما كتبه الحكمدار فى هذا الموضوع الى أعيان حلب مثلا قوله « لا أخفاكم ما فاضت به بحور احسانات سعادة أفندينا ولى النعم الخديو الأعظم عزيز مصر

المعظم دام مادام العالم وذلك بتفويض أحكام آيالات الأقطار الشامية لعهدة عجزنا ‎.... الخ .. » .

وما أن اتخذت هذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات أخرى فقسمت البلاد الى مديريات أربع وامارة ممتازة وأشـرف الحكمدار بنفسه على مديرية دمشق وتولى أعمال مديرية حلب أحد أبناء محمد على اسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الادارة فى مديريتى طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبدالهادى وولده بعده . أما لبنان فأنه بقى فى عهده الأمير بشير .

وكان على رأس كل مدينة أو قرية كبيرة من هذه المديريات وقراها متسلم يعينه الحكمدار بموجب أمر رسمى صادر منه ويتعاون ومجلس الشورى فى حل المشاكل الادارية اما صلاحية هذا المجالس فانها لم تكن فيما يظهر دائما واضحة محددة فبينما نرى مجلس حلب يتصرف بكليته تقريبا للمحافظة على مصالح الحكومة المادية نفاجأ بأمر من محمد على الى ابنه ابراهيم لانشاء مجلس شورى فى قونية « للنظر فى أمر تلك البلاد ومصالحها ولاصدار البيانات اللازمة لتشويق الأهالى وحضهم على الطاعة » ونرى فى الوقت نفسه مجلس بيروت بنظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التى لا علاقة لها بمصالح الحكومة .

ولما كانت حاجة الحكم شديدة الى المال لضبط كل شىء والعمل فى سبيل تحديث البلاد فقد أنشأ محمد على فى الشام ادارة خاصة للمال وعين على رأسها برتبة مدير حنا بحرى بك ثم ارفق كل متسلم فى البلاد بموظف مالى خاص أطلق عليه لقب الصراف وحاول بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وان يعرض مشروعا لاصلاح الخلل فى الناحية المالية يلخص بما يلى :

١ ـ تحديد المبالغ المطلوبة من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح فى دفاتر معينة وطبع غيرها للمحاسبة ٠

٢ ـ مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء أصحاب القوة والاقتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون ٠

٣ ـ اعداد دفاتر خاصة يوضع على رأس كل صحيفة من صحافها ورقمها المتسلسل وتختم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التى تستعمل فيها ٠

٤ ـ الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وابطال ما كان مختلا منها ٠

٥ ـ جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة فى أوقات غير معلومة وفحص حساباتهم ثم أسس فى مصر قلم خاص عرف « بمصالح بر الشام » وكتب محمد على الى حكمدار الشام يقول له :

لما كان لبر الشام ككل قطر من الاقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل أمرها ويستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجناب العالى يطلب الى شريف بك أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطلعا على قواعد بر الشام فيرسله عاجلا الى مصر ليستقيم فى القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حينا فحينا ثم يعود فيقول له : « انه عاد يفكر فى كثرة آيالات الشام فاستبعد وجود رجل واحد تيسر له معرفة أصول كافة الآيالات ولذا فانه يرى ان يستحدث فى بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات والالتزامات يتولى بحث

الأوراق العديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بخلاصـــة بحثه ونتيجة تدقيقه الى مصر ·

يفضل الجناب العالى هذا على ارســـال الدفاتر والأوراق المتنوعة الى مصر ويستطلع رأى شريف باشا الأمر ·

وعهد محمد على بعد موافقة ابراهيم الى ســـليمان باشـــا الفرنساوى بمراقبة شئون الأجانب فى بر الشام · فحاول ضبط هويتهم وأمر بتطبيق قوانين التجول المتبعة فى البلدان الأوربية · ففرض على الأجنبى وجوب اتصاله بقنصله للتأشير على جواز سفره لدى وصوله الى بر الشام ووجوب مثوله امام الســـلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب · وكان ابراهيم باشا قد عهد الى اسماعيل عاصم بك مدير آيالة حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للغرض نفسه ·

عنى ابراهيم بتنظيم وتحسين المواصلات ولاسيما تنظيم البريد العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى وبريد مســـتعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر فى ستة أيام · ثم أراد ابراهيم أن يخدم الجمهور فأمر باعداد مشروع خاص لانشاء بريد عام ينقل رسائل جمهور الناس ·

أحلت الحكومة فى الشام النظام محل الفوضى والارتباك · قال ابراهيم عن حكمه لمرعش وأوراقه ·· اننى فى خلال المدة التى وليت فيها القيام بخدمة الجناب العالى الخديوى لم أتسبب فى أذية أى انسان ولم أعمد الى ايقاع الضرر ، أو مال أى فرد من الناس · وهذا أمر يعرفه جميع أولى الابصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان التى حثيها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن · وكنت أعـــامل

الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم أيضـــا أثرى ولم ينحرفوا عن هذه القوانين • اننى وان كنت لم آت بعد أورفة فأننى منذ عشرة أشهر اقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة انهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل • أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يســـتولون على ما فى بنادرنا من غلال وينهبون أثمار بساتيننا وهب الله سلطاننا العمر وعســـاه لأى حرمنا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك اننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون مثـــلا من حيث التجنى عليهم واتهامهم بدون حق لغــــرض ما • والأهالى الآن يؤدون الويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا اقل اننى ادفع اثمان جميع حاجياتى اليهم الا ايجار المنزل الذى اقيم فيه وثمن الماء الذى اشتريه وأنا متكفل أمر استعانة العساكر وحسن سيرهم » •

وكتب حكمدار الشام الى المسئولين فى مصر يفيدهم انه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى الحكومة فى بر الشام استعداد ديوان المدارس لبيع بعض الكتب التى كانت تطبع فى بولاق وانه يقدم لنا القوائم التى وردت عليه من الشام وحلب وطرابلس واللاذقية وغزه ويافا • اما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة وكتاب الحكمة وعلم الحســـاب وتاريخ أمريكا وكتاب المعـــادن والتشريح البشرى وقلائد المفاخر وعقد الجمان وشــرح المثنوى وكليلة ودمنة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ الاســكندر وتاريخ المصريين والجغرافية الطبيعية •• وغيرها من كتب الطب والمنطق وتاريخ الأديان •

ونرى حنا بحرى بك ينوه بأهميـــة تاريخ بن خلدون ويذكر المساعى التى بذلها محمد على لاستنساخه عن نسخ المغرب ولنقله

الى التركية ثم يرجو التفضل بارسال ما ترجم منه كى يمرن أولاده عليه ويعلمهم أصوله • هذا الى جانب الاهتمام بالصحة العامة وانشاء المستشفيات •

ومن أهم مآثر الحكم المصرى فى بلاد الشام الاستعانة بابناء البلاد فامتنع ابراهيم عن اغراق الشام بالموظفين المصـــريين ولم يستقدم من مصر الا من استوجبت الضرورة قدومه ومن ذلك ان محمد على أمر محمد شريف بك لدى تسلمه أزمة الحكم فى الشام بوجوب اسناد منصب المتسلمية فى دمشق الى أحد أعيان هذه البلدة الى مصرى كفؤ اذا تعذر وجود كفؤ لها من الدمشقيين انفسهم • وقال ايضا فى كتاب أرسله الى ســـليمان باشا انه عين حراس الصحة فى المراكب المسافرة الى بر الشام من أبناء مصر لأنه لم يجد من هو أهل لذلك فى بر الشام •

وعين ابراهيم باشا على بيروت أحد أبنائها محافظا عليها وأبقاه فى هذا المنصب ثمان سنوات (١٨٣٣ ـ ١٨٤٠) ذلك هو الأمير محمود نامى الذى أرسله الى فرنسا مع بعض ضباط بحريته لاتمام تعليمهم فيها وتلقى محمود علومه العالية وتخصـــص فى الرياضيات ، ولما رجع من فرنسا عين محافظا على بيروت ، وقد نقل محمود نامى الى بيروت كثيرا من أساليب الحياة الغربية وخطت بيروت خطوتها الأولى فى سبيل رقيها الحديث فأوجد فى بيروت مجلسا للشورى وديوانا للصحة وآخر للتجارة •

واعترف السوريون والمعاصرون منهم بوجه خاص بفضـــل الحكم المصرى فى بلاد الشام ، يقول الدكتور خليل مشاقة فى كتابه مشهد العيان فى حوادث سوريا ولبنان (لم يمض على حصـــار عكا زمنا حتى أرسل محمد على تفويضا الى حنا البحرى فى شئن

النظامات لحكومة سوريا على النمط الحديث ، وكان حنا البحرى على جانب عظيم من اصالة الرأى، وله القدح المعلى فى السياسة المدنية وكان العدل والانصاف شأنه والنزاهة زمامه لا فرق عنده بين القوى الثرى والضعيف الفقير أو المسلم والذمى ، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد على باشا الذى كان عارفا أنه لا قيام للدولة الا بالعدل والانصاف ٠

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى المناصب الكبيرة دليل على حد اعتراف الكثير من المؤرخين الأوربيين برغبته فى اسناد كبار المناصب الى أبناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية ٠

كتب المؤرخ الفرنسى لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) اذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين ، فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست باشجار الزيتون وضواحى بيروت التى كثرت فيها الكروم ،وال نشاط الذى انبعث فى حلب ودمشق ٠ صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد ، نالت سوريا النظام والعمران » ٠

واكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سوريا فى عهد الحكم المصرى انه اذا بقيت أعمال محمد على وبقى الأمن الذى بسطه فيما فتحه من البلاد ، فان حالة البلاد ستتطور تطورا كبيرا ، واعترف السوريون أنفسهم والأدباء والمؤرخون منهم بذلك ٠ كتب سليمان أبو عز الدين أحد أدباء سوريا فى كتابه ابراهيم باشا فى سوريا : لابراهيم باشا فضل خاص فى السنين الأولى من الفتح

فى ضبط الأحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الأهلين ، وكان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة، فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم لملكت قلوب السوريين •

كانت تعليمات محمد على شدة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر ، ومثال ذلك ان تشاكى كبار الموظفين انتشار الرشوة فى دوائرهم فى الشام فأمر بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم ، قال ابراهيم فى كتاب له الى أحد معاونى محمد على « ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعيم نوفل كاتب الخزينة فى طرابلس أن أهل عربستان ميالون جدا الى اعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خيانة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم • وقد تحملنا فى سبيل انقاذهم من بلية الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا فى السلب والنهب خوض المقدمين على الاغارة •

وأبقى اتفاق كوتاهية تعيين قضاة الشرع فى الشام بيد السلطان فخشى محمد على عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب السلطان واثر ذلك فى أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الادارة قبل تنفيذها ثم لمس عجزهم عن النظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طليقة • فرضى عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة فى اللاذقية عندما افتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيريين ونسائهم لكن اللواء المصرى قاومه وهدد بانزال العقاب بمن يفعل ذلك • وقل الأمر نفسه عن موقف محمد على من

علماء دمشق عندما اعترضوا على نظام الحجر الصحى (الكارنتينا) قالوا : ان حبس الناس فى البيوت واقامة خفراء ماجورين عليهم واخراج بعضـــهم على هيئة مرعبة واحراق بعض أشيائهم ودفن الموتى بملابسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك دليل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه مخالفة الشرع اذ ان الحبس واخراج الناس فى هيئة مخيفة انما يجوز فيمن يكون مجرما ولا جناح على الذى ظهر الطاعون فى بيته ولا يستحق الاجرة الا من قام بعمل نافع للأمن ۰ ولا ينبغى ان يضايق المحبوس فى عيشه ۰

عندما قال علامه دمشق ذلك استقدم محمد على من افتى بما يلى :

« دلت اخبار السلف وآثارهم على ان الأجواء تختلف وان بعضها قد تكون ضارة وان الانتقال من محل ثبت فساد جوه الى محل آخر واشتمام الروائح الطيبة واستعمال البخور لازالة الروائح الكريهة والعضد والحجامة والاستقاءة لما وردت بها السنة المحمدية ولا تنكر اذا نفذت بطريقة لا تخل باحدى الفرائض فاذا أمر ولى الأمر بأجرائها بشروط هى ان لا يضيع حق المطعون ولا الذى ظهر الطاعون فى بيته وان لا تكون معيشة أحد عرضه للضيق وان لا يحتفل بالميت مطعونا بدون الاحتفال بالمائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخل بالشـــعائر الدينية فان اطاعة أوامره فى أتيان المبـــاحات واجبه فكيف بالحجـر الصـــحى وهو بين الوجوب والاستحباب » ۰

وهكذا لم تكن عملية التحديث فى الشام شانها شان مصر عملية سهلة أو ميسرة بل كانت هناك العقبات الكثيرة التى تصدى لها الحكم المصرى فى حزم وصرامة ۰

ورأى ابراهيم انه لتوطيد الأمن فى الشام من انه لابد من جمع السلاح وتجريد السكان عنه فأمر بذلك وشرع في التنفيذ وما ان بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر. ومما زاد الطين بلة ان عملاء الاستانة استغلوا الموقف وحرضوا السكان على الصمود فى وجه الحكومة المصرية فاشتد ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرد ابراهيم على كل من عصى حمله اكرهه فيها على الاذعان والطاعة وتكبد فى سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فمن حرّب فى فلسطين الى حملة تأديبية على النصيريين الى مواقع دامية فى وادى التيم وجبل الدروز الى محاربة الأكراد فى اقصى الشـــمال الى فتنة مستعصية فى لبنان أدت فى أواخر الأمر الى تدخل الدول الأجنبية واقصاء المصريين عن البلاد .

وفى ظل الحكم المصرى أحس سكان الشام بالعدل الذى لم يشهدوه من قبل . قال محمد على فى رسالة وجهها الى أحد رجاله : كنت أود أن نكون قد تخلصنا من الشـــعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباه التى طالما الفناها ومللناها فى الأيام الخالية وان يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الانصاف والانسانية والكياســـة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشـــرية الراقية .

ومما لاشك ان حكم ابراهيم فى بلاد الشام كان مصلحا وعادلا اذا قيس بالحكم العثمانى بل وكان متقدما ومســـتنيرا من وجوه عديدة وقد أجمع القناصـــل فى تقاريرهم والمراقبون على امتداح مزاياه واصلاحاته الزراعية والعمرانية وتوطيده للأمن وارس قواعد دولة حديثة منظمة يتعامل الفرد فيها مع الدولة فقد لمس ابراهيم

الظلم الذى لحق بالفلاح والمزارع من جراء تلزيم الضرائب فكتب الى السلطات فى مصر يلح بوجوب الغاء التلزيم وبجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الادارة قال : انى لم اقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لجانب الميرى فقط بل انى رأيت فى ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا ٠ فقد تيقنت ما يلقاه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخســـارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرها ويقيمون فيها فمأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يمرون عليهم فى اثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالى وليس بامكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك ٠ فقد تبقى هذه الغــلال على بيادرها حتى موســـم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر ٠ ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما اننا لا نحجم عندئذ عن اجراء التحقيق اللازم ٠ ولقد سأل شيوخ القرى بين الشـــام وحلب جرمانوس لدى مروره فيها اننا سمعنا ان ضرائب العشـــر ستطرح على الأهالى بالمقطوعية فعل لنا ماذا تم » ٠

ومن أهم ما يذكر للحكم المصرى فى بلاد الشام حماية مصالح التجار الوطنيين حيث منحوا نفس الامتيازات التى منحت للتجار الأجانب ٠ فتذكر الوثائق ان محمد على وافق على السماح لتابع قنصل انجلترا فى رودس باستخراج الاسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك اذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى ٠٠ وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفســـها التى يتمتع بها الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافىء بر الشام ٠ وجاء فى رسالة من المعية السنية الى ابراهيم باشا انه لا يمكن ائتمان الأجنبى المتجنب على مصالح البلاد وانه نظرا لتصـــلب

اسكواره بك فى رأيه واستئشاره بشئون مدرســة المدفعية تقرر تشكيل لجنة من خريجى مدارس أوربا من أبناء البلاد للنظر فى تنظيم المدارس » ٠

وألح ابراهيم من بدء حكمه فى الشام بوجوب ارسال عشرين أو ثلاثين صبيا من بر الشام الى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرابيش ولادخال هذا الفن الى بلاده فتتحول اذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة الى أبناء البلاد ٠ ووافق بعد مدة وجيزة على انشاء معمل لصنع العباءات فى عكا تدار دواليبه بواسطة المياه واصدار الأمر لارسال الدواليب والمدقات اللازمة من مصر ٠

وليس معنى ذلك ان الحكم المصرى كان خيرا كله وأنه لم تكن له ما يؤخذ عليه لكن الأمر الذى نريد التأكيد عليه هو ان هذا الحكم لعب دورا رئيسيا وهاما فى تحديث بلاد الشام وان وجود هذا الحكم برغم قصر عهده قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية ٠ فقد فتحت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ابراهيم باشا فى حكمه لبلاد الشــام الباب أمام بعثات التبشــير الغربية وخاصــة البعثات البروتستانية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية ٠ ومما لاشك فيه ان جهود هؤلاء المبشرين فى فتح المدارس فى بلاد الشام كانت أحد ولا نقول كل الأسباب الهامة التى جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها حركة اليقظة العربية فى العصر الحديث ٠

وحين انتهى الحكم المصرى لبلاد الشــام وعادت من جديد للخضوع للحكم العثمانى لم يكن من الممكن أن يستطيع هذا الحكم بكل أساليبه البالية ان يملأ الفراغ الذى تركه الحكم المصرى ٠ وبعد وفاة السلطان محمود الثانى بعد موقعة نزيب (٢٤ يونيو ١٨٣٩) التى انتصرت فيها قوات محمد على انتصارا باهرا وكانت

وفاته قبل ان تصله انباء تلك الكارثة ، تولى رشيد وانصـــاره مسئولية اصلاح الدولة التى كانت كل فروع ادارتها عرضه للفوضى الشاملة التى عزاها الجيش الذى ضعضعت انتصارات قوات محمد على معنوياته الى اصلاح محمود · وكانت انتفاضات شعبية قد جرت فى كثير من الولايات على حين رحل اســـطول الدولة الى الاسكندرية وانضمت فرقة عسكرية كاملة الى ابراهيم باشـــا فى الاناضول · كان رشيد يرى أن بقاء الدولة العثمانية يستلزم اعادة الوحدة التى كانت مصدر قوة الامبراطورية فى أيامها الأولى وان ذلك لن يتم الا بتطوير المبادىء التى تهتدى بها الحكومة وجعلها شبيهة بالنمط الأوربى الدستورى · واستطاع أن يستغل الأزمة التى سببتها هزيمة القوات العثمانية فى نزيب فى الحصول على المساندة الرسمية لبرنامجه الاصلاحى خاصة وان الدولة كانت بحاجة الى هذه المساندة ضد محمد على فمن شأن اعلان برنامج اصلاحى أن يوضح للدول الأوربية العظمى ان بامكان الدولة العثمانية أن تحرز التقدم وانها تستحق الانقاذ ــ وهكذا أجرى رشيد مفاوضات مع بالمرستون وغيره ليس فقط لحسم الأزمة الشرقية لصالح الدولة بل للحصول على المساعدة الخارجية للاصلاحات التى كان على وشك القيام بها · وقد استطاع رشيد ان يقنع السلطان الجديد ان بامكان الدول العظمى أن تحسم الأزمة لصالح الامبراطورية العثمانية وهكذا جاء اعلان ٣ نوفمبر ١٨٣٩ فى قصـــر طوب قبى المعروف باسم جولخانه (قصر الزهور) الذى يعتبره بعض المؤرخين بمثابة العهد الأعظم بالنسبة الى العثمانيين ·

وهكذا يمكن القول أن حروب الشام وما نتج عنها لعبت دورا هاما فى صدور حركة التنظيمات فى الدولة العثمانية ·

وكان من اثر حركة التنظيمات انتشار موجة المدارس العثمانية فى العراق وفى بلاد الشام · وفى الأخيرة كان نشاط الجمعيات أو

الماجناكارتا التبشـــيرية الكاثوليكية والبروتستناتية قويا فى مجال الثقافة والتعليم ٠

ومع ان منشور التنظيمات أعلن مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، الا ان الحكومة لم تستطع أن تطبق المبدأ تطبيقا مطلقا ، فظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين وحدهم بينما دفع المسيحيون الجزية ، كما ظلت الوظائف بصفة عامة ولاسيما الوظائف الادارية والقضائية محصورة فى يد المسلمين ، وهكذا أدت التنظيمات الى زعزعة نظام الملل دون أن تدمجها فى كيان المجتمع اندماجا تاما ، فأصبحت هذه المؤسسات الدينية مجالا خصبا للنشاط الأوربى الثقافى والدينى والسياسى ٠ وكان لذلك أسوأ الأثر فى الولايات العربية لاسيما بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية ، فبينما كان المسلمون يتجهون الى السلطنة ، ظلت هذه الأقليات تتجه الى الدول الأوربية لحمايتها وتأييد وضعها الشبه مستقل وبمعنى آخر انتهت التنظيمات الى تعميق الهوة بين المسلمين والمسيحيين فى الولايات العربية حتى ان المؤرخ الفرنسى ثومين Thoumin فى كتابه تاريخ بلاد الشام يرى ان مذابح لبنان ١٨٦٠ ترجع فى أسبابها غير المباشرة الى التنظيمات العثمانية ٠

ويرجع بعض المؤرخين بعض أسباب أحداث فتنة ١٨٦٠ الى سياسة حكومة ابراهيم باشا المصلحة فى سوريا حيث أوجدت قلقلة بين الفلاحين وجعلتهم أكثر احساسا بحقوقهم المغتصبة من أصحاب الأراضى وهو الأمر الذى تسبب أحداث عدد من الفتن السابقة فتنة الستين ٠ ثم كانت تلك الفتنة الكبرى التى انتهت بوضـــع خاص للبنان والتى تقاطر بعدها التبشير على هذه المتصرفية الممتازة من متصرفيات الدولة العثمانية ٠ وتبع ذلك فتح العديد من المدارس والكليات على نحو ما هو معروف ٠

الفصـــل الثـــانى

الشــوام فى مصر

اذا كانت مصر على طول امتداد تاريخها قد رحبت بالقادمين اليها من شتى الأقطار العربية والاسلامية فان اكثرية القادمين اليها فى عصورها الحديثة كانوا من الشام ٠

كان رواق الشام فى العصــــر العثمانى هو اكبر الأروقة فى الأزهر ازدحـــاما بالطلبة ٠ ويلاحظ ان دولتى المماليك البحــرية والشراكسة كانتا تحكمان مصر والشام فكانت الحدود بينهمـــا مفتوحة على مصراعيها ، ثم جاءت الدولة العثمانية وفتحت الشام ثم مصر ودخل اقليم الحجاز تحت سيادتها ثم فتحت اليمن والعراق ومدت نفوذها الى معظم اقاليم شـــبه الجزيرة العربية ، ومنطقة الخليج العربى ، وجميع اقاليم شمال افريقيا ماعدا مراكش (بلاد المغرب) ولم تكن هناك حدود عازلة بين مصر حيث يوجد الأزهر وشعوب الأمة العربية ٠ فكان فى استطاعة العربى أن يعبر من المشرق العربى أو المغرب العربى الى مصر ويمارس فيها الوانا من النشاط الثقافى أو الاقتصادى دون أن تقام فى وجهه العقبات أو العراقيل ٠

والحقيقة أنه اذا كان للحكم العثمانى من حسنات فان أهم ما ينبغى أن يذكر فى هذا الشأن انه بفتحه للاقاليم العربية وبسط سلطانه عليها قد حافظ على خصائص ومقومات الوحدة بين تلك الولايات .

وكان من الطبيعى بحكم رابطة الجوار والموقع أن يكون أبناء الشام هم أكثر الوافدين الى مصر والذين لم يكونوا يعدون أجانب بل عدوا رعايا للدولة العثمانية مثلهم فى ذلك مثل المصريين تماما ، وقدر للشوام أن يلعبوا دورا هاما فى التجارة سواء الداخلية منها والخارجية فقام بعضهم بدور الموردين للسلع واشتغل آخرون بتجارة الأقمشة المحلية والحريرية والقطنية والمجوهرات فضلا عن السلع الشامية ، بل وأصبح لبعض هؤلاء التجار وكلاء فى موانى البحر الأحمر الشهيرة مثل جده ومخا وغيرهما كما وصل بعضهم الى منصب شيخ الطائفة التى يشتغل بها .

وبرز دور الشوام على عهد الحملة الفرنسية على مصر حيث كان منهم من اشتغل بأعمال الترجمة لتلك الحملة فاستعان بونابرت بعدد منهم مثل الياس فخر ، ابراهيم صباغ ، أنطون زاخورة ، الياس حنانيا فرعون ، نقولا الترك ، بالاضافة الى انطون رفائيل زاخور الذى كان العضو الشرقى الوحيد فى مجمع نابليون والذى اختاره ليكون مترجما للمجمع حيث قام بجهود كبيرة فى هذا المجال وترجم كثيرا من الوثائق التى جمعها علماء الحملة وصنفوا منها كتابهم الشهير وصف مصر الى جانب ترجمته للكثير من المراسيم والقوانين والقرارات التى أصدرها بونابرت .

واستعان محمد على بالشوام فى مصر فى بناء دولته الحديثة فأرسل نقولا مسابكى فى بعثة علمية الى ايطاليا (ميلانو) ١٨١٥

لتعلم فن سبك الحروب وصنعها وقام الشوام بدور الترجمة بين الطلاب المصـــريين والعلماء والمدربين الأجانب الذين أتى بهم من فرنســا وايطاليا نظرا لاتقان الكثير منهم للفنيين الفرنســـية والايطالية • وقام هؤلاء بدور بارز فى ترجمة العــديد من الكتب العلمية والعسكرية والادارية من لغاتها الأوربية الى العربية •

كما سمح لهم محمد على بالالتحاق بالمدارس التى انشاها مثل مدرسة الطب وغيرها وذاع صيت بعض هؤلاء المتخرجين حتى بعد عودتهم الى بلادهم وانضم كثير منهم الى الجيش المصرى حتى قبل فتح محمد على لبلاد الشام • كما أن محمد على عندما تطلع الى ادخال دودة القز للانتفاع بحريرها ، سعى فجلب اناسا من الشام وجبل لبنان بصفة خاصة لخبرتهم الواسعة فى هذا المجال ووطنهم فى وادى الطميلات وبنى لهم مساكن هناك • والمعروف ان محمد على عين عددا من الشوام فى المناصــب الادارية الهامة واقطعهم الأراضى الزراعيــة ، الأمر الذى أدى الى زيادة عددهم وانتشارهم فى أرجاء مصر فقدرهم البعض بما يتراوح ما بين ثلاثة آلاف شامى بالقاهرة وما بين خمسمائة وستمائة بدمياط ومائتين وثلثمائة بالاسكندرية وذلك خلال العقدين الأولين للقرن التاســع عشر وان كان البعض قد قدر عددهم بخمسة آلاف شامى حتى منتصــف العشــرينات من نفس القرن • وتذكر هذه التقديرات للمسيحيين منهم فحسب ، أما المسلمون الشوام الذين اندمجوا فى المجتمع المصرى وذابوا فيه فلم تشملهم بتلك الاحصائيات •

لكنه مع وقوع احداث فتنة سنة ١٨٦٠ الشهيرة بدأت اعداد هجرة الشوام تزداد وكانت قبلتهم الأولى بالطبع هى مصر التى جاءوها بأعداد وفيرة •

ويرى بعض المؤرخين أنه لايمكن ارجاع هجرة الشـــاميين وتزايد أعدادهم الى مصر الى العوامل السياسية وحدها فما لاشك فيه ان العوامل الاقتصادية لعبت دورها فى هذه الناحية خاصة بعد انتشار التعليم فى بلاد الشام وسعى الشوام لتحسين أحوالهم الاقتصادية والبحث عن حياة افضل من بلادهم ومهارتهم التجارية التى تحثهم على السعى والارتحال ، كل ذلك كان دافعا لهم للمجىء الى مصر ليمارسوا فيها نشاطهم التجارى خاصـــة بعد ما رأوا ما وصل اليه من سبقوهم الى الهجرة من نجاح اقتصادى كبير • وشجعهم على المجىء تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك التعليمية التى شهدتها مصر على عهد الخديو ـــــ غير وتطلع الكثيرون منهم للاستخدام فى الوظائف الحكومية المصرية • ثم لا ننسى طبيعة الشاميين الذين جبلوا منذ أقدم العصور على حب المغامرة والترحال بحثا عن أسباب المجد والثراء •

ومن المعروف أنه كان من الأسباب المباشرة لازدهار الصحافة فى عصر اسماعيل هجرة عدد كبير من المثقفين والكتاب والفنانين الى مصر نتيجة للمذابح الدينية التى عمت بلاد الشام فى الستينات من القرن الماضى • وقد تبنى الخديو اسماعيل هؤلاء اللاجئين كجزء من سياسته العامة فى مناوأة الباب العالى والتعبير عن استقلال الارادة المصرية فأنشئت جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥ وأدى نشوب الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧ الى انقســـام الرأى العام المصرى بشأنها الى فريق يؤيد الباب العالى صـــاحب السيادة الشرعية على البلاد وفريق يجاهر بالعداء • وترك الخديو اسماعيل الصـــحافة المعادية لتركيا تعبر عن توقعها بحرية تامة بوحى من سياسته الاستقلالية فساعد ذلك على استقطاب الفكر المصرى حول ما صار يعرف بمصر للمصريين بل بلغ تعريض بعض الصـــحف

المصرية بفساد النظام العثمانى ان الاهرام نددت صراحة باستبداد سلطان تركيا ودعت الى الاصلاح فكتبت فى ٢٢ مارس ١٨٧٧ تقول لقد شكونا من الاستبداد الموصل للدمار نتهيأ لنا الآن ان نقصيه بعيدا • والخطاب السلطانى قال قد أشهرت وثيقة الاصلاحات أوجدت البرلمان مؤكدا للجميع العدالة والحـــرية ، وفى عدد ١٢ ابريل ١٨٧٨ كتبت تقول « قل لنا متى النهاية تحملنا مالا يطاق صبرنا على البلوى فحتام ننتظر » •

ومع مجىء جمال الدين الافغانى الى مصر تحلق حوله عدد من مثقفى الشام فحصل سنة ١٨٧٧ لاديب اسحاق على امتياز اصدار جريدة مصر وغذاها بمقالاته والتى تحدث فيها الافغانى لأول مرة عن مصر الفتاة • وأوحى الافغانى الى يعقوب صنوع باصدار جريدة أخرى فى الاسكندرية باسم التجارة فاصدرها سنة ١٨٧٩ وساعد سليم عنخورى على اصدار جريدة مرآة الشـــرق ســـنة ١٨٧٩ •

وما ينبغى تاكيده وتوضيحه أن هذه الأرض المصرية كانت التربة الصالحة التى استطاع فيها عدد كبير من الشوام ان يحقق نجاحا كبيرا فى مجالات الحياة المختلفة وهذا هو سر تعلق هؤلاء الشوام بالبلاد التى احتضنتهم وقدمت لهم كل سبل النجاح والثروة والشهرة والتى لم تتحقق لهم فى بلادهم • ومن الصعب حصر كل أوجه نشاط هؤلاء الشوام انما نريد ان نقول أن مصر وان لم يقدر لها أن تلعب الدور الأول فى الحركة العربية فى العصر الحديث فانها بما تم فيها من تحديث وبناء الدولة المصرية الحديثة على عهد محمد على ثم دورها بعد ذلك فى تحديث بلاد الشام على نحو ما أوضحنا ثم باحتضانها للزعامات الفكرية من أبناء الشام والذين قدر لبعضهم أن يلعب أدوارا رئيسية فى الحركة العربية ــ ان مصر بما فعلته من ذلك كله قد أدت أدوارا هامة فى تاريخ تلك الحركة •

وتعاظم دور الشوام فى مصر وكان من الطبيعى أن يكون هناك من يحقد على هذا الدور وتلك المكانة التى بلغها بعضهم ووصفهم بعض المصريين بالغرباء والدخلاء ٠

وعندما جاء الاحتلال البريطانى لمصر كان من أول الأعمال التى قام بها تعطيل جرائد الثورة العرابية والقبض على محرريها ففى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصدر رياض باشا ناظر الداخلية أمرا بالغاء جريدتى الزمان والسفير والقى القبض على حسن الشمس صاحب المفيد والسفير والنجاح الأمر الذى دعاه بعد الافراج عنه الى هجر الصحافة والاشتغال بالمحاماه كذلك اختفت صحف عبد الله نديم واختفى صاحبها بعد صدور الأمر بالقبض عليه ٠ كذلك نفى محمد عبده ولم يسمح له بالعودة الى مصر الا بشرط عدم الاشتغال بالصحافة ٠ وهناك فى باريس أصدر مع أستاذه الافغانى صحيفة العروة الوثقى ٠ فبعد فشل الثورة العرابية لم يبق من صحف المقاومة الا مجلتان تصدران فى باريس هما مجلات أبو نظارة ومحررها يعقوب صنوع ومجلة العروة الوثقى ٠ وظل يعقوب صنوع يتفنن فى تهريب مجلته الى مصر آنا بدسها داخل الجرائد والمجلات الأوربية التى ترد الى مصر وآنا بتغيير اسمائها لتضليل السلطات المصرية حتى بلغ عدد هذه الاسماء عشرا منذ نفيه فى ١٨٧٨ ٠ وكتب يعقوب صنوع يصف مغامراته فى مذكراته سيرة ذاتية غير المنشورة (تاريخ ابو نظارة) والتى نقلها الدكتور ابراهيم عبده من المخطوط الذى تحتفظ به ابنته فى باريس قال « كنت غالبا ما أضع صحفى فى مجلات مصورة وكراسات موسيقى ووضعت فى الجرائد التى نشرت صورة الخديو عام ١٨٧٩ ألف نسخة من صحيفتى ٠ ولم أكتف بأرسالها للمشترين العديدين ولكن بعثت بها أيضا الى جميع أصدقائى ومعارفى ٠ وقد تلقى الخديو

نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتى فيها · وكان غضبه لهذه الجرأة شديدا ·· » ودأب يعقوب صنوع على تهريب مجلته الى مصر بطريقة مشابهه بعد عزل اسماعيل وتولى توفيق فى أوائل عهد الاحتلال حتى سنة ١٨٨٤ ·

أما العروة الوثقى التى صدرت أولى أعدادها فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ فقد حددت فى العدد الأول منها رسالتها « ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق (أى احتلال انجلترا لمصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاقتصاد بين ساكينها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أسرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن تجد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ·· واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وان تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواســـطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسينى الافغانى ان ينشىء تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الاجباه حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال » ·

ولكن مجلس الوزراء المصرى قرر فى ٢١ يوليو ١٨٨٤ منع دخول العروة الوثقى الى مصر وكانت تهرب بنفس طريقة أبو نظارة،

وتوسط بلنت مع محمد عبده ان يزورا انجلترا للتفاهم حول موضوع العروة الوثقى ، وفى لندن قابل محمد عبد كثيرا من رجال السياسة وسأله وزير الحربية الانجليزى الا يرضى المصريون أن يكونوا فى مأمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانجليزية ، فأجابه محمد عبده كلا ان المصريين قوم عرب ومنهم من محبى الأوطان مثل ما فى الشعب الانجليزى فلا يخطر فى بال أحد منهم الى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين ، ولما لم تسفر المحادثات عن شىء تم الاتفاق بين الحكومة الانجليزية والفرنسية رأسا على منع ارسالها الى مصر من المنبع أى من مصلحة البريد الفرنسية • ومن ثم توقفت العروة الوثقى بعد العدد الثامن عشر الصادر فى ١٦ اكتوبر ١٨٨٤ •

وافترق الزعيمان محمد عبده والافغانى الأول يرى هجر السياسة ويلعن كلمة السياسة ومشتقاتها ويؤمن بالتربية سبيلا الى الاصلاح والثانى يمضى فى احتراف السياسة ويقول لمحمد عبده انما أنت مثبط • عاد محمد عبده الى بيروت وكان يقيم فيها قبل استدعاء الشيخ جمال الدين له للاشتراك معه فى اصدار العروة الوثقى •

يقول عباس العقاد فى ترجمته لمحمد عبده ، « اما الشيخ محمد عبده فقد عاد الى بيروت وهو يزداد ايمانا بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأول فى الملوك والأمراء ، ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة على الأمم دون غيرها ، وحصر الأمل كله فى اعداد هذه الأمم للنهضة والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة » ، وظل محمد عبده على هذا الرأى يزداد ايمانا به يوما بعد يوم ، ويضيف اليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم ما يعززه تعزيزا لا سبيل الى الشك عنده وقد كان

يقول لتلاميذه الفقهاء والأدباء من أمثال رشيد رضا وحافظ ابراهيم ان السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا ، « وان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لافاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس ان نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار فقال انما انت مثبط » .

اقام محمد عبده فى بيروت وكان ذلك على عهد السـلطان عبد الحميد الثانى وما اشتهر به عهده من التجسس وخنق الحريات فانصرف محمد عبده طوال اقامته فيها للعمل عالما ومعلما يؤلف ويلقى الدروس فى شرح البلاغة ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يدرس تفسير القرآن فى مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التى اتبعها من بعد فى مصر لا يتقيد بكتاب فى التفسير خاص ، وانما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفاسير وبما يجتهد ويستطرد فى شرح أحوال المسلمين ونقدهم حسـبما تلهمه الآية .

ومما لاشك فيه أن اقامة الشيخ محمد عبده فى بيروت كان لها آثارها الكبير فى مجال الحركة العربية بما خلف وراءه فيها من مريدين وتلاميذ من بلاد الشام . وحين دعى للتدريس فى المدرسة السلطانية أصلح برامجها ودرس فيها التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الاسـلامى والفقه على مذهب ابن حنيفة ، وإتحد بيته للحديث العلمى والأدبى . وهكذا شهدت بيروت على عهد الامام محمد عبده حركة علمية كبيرة كما أسهم فى الصحافة بدلوه فكان

يكتب فى جريدة (ثمرات الفنون) مقالات تشـبه تلك التى كان يحررها فى الوقائع مثل مقاله فى الدعوة الى النقد والحث عليه وانه (النقد) اداة لتصحيص الآراء ومعرفة وجه الحق فى الأفكار ٠

وكان رشيد رضا من مريدى محمد عبده الذين سعوا لى لقائه وهو فى بيروت وكان اذ ذاك يطلب العلم فى طرابلس الشام ٠ وكان محمد عبده قد سـافر الى طرابلس من بيروت لزيارة احـ اساتذة المدرسة الخاتونية وسجل رشيد رضا أثر هذه الزيارة ثم سعى للالتقاء به مرة ثانية بعد مجىء محمد عبده من مصر بعد أن عفا الانجليز عنه لزيارة بلاد الشام ٠ جاء محمد عبده سنة ١٨٩٤ الى تلك البلاد مصطافا وكان يصحبه احمد فتحى زغلول رئيس نيابة الاسكندرية اذ ذاك ٠ وحرص رشيد رضا أن يشترك فى المناقشات التى دارت بين الأمام محمد عبده وأبناء الشام ٠

ولم يتردد رشيد رضا فى الرحيل الى مصر ليكون على مقربة من استاذه الامام ولأنه سمع عن مواطنين له من الشام سبقوه الى هذا الميدان من أرض مصر ٠

كانت مصر ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد العثمانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) فلقد رأوا أن الاستبداد الذى فرضه هذا السلطان قد افسد صفاء النفوس وضيع اخلاقها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذه النفوس ٠ لقد سد هذا السلطان على الناس منافس الحرية وخنق ارادتهم ليستعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء ـ انه فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب ٠ واذا وصلت النفوس الى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البرىء وامن المسيىء وتقدم الهازل وتأخر المجد وراجت الشعوذة ٠ وصار

المرء لا يأمن على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولايدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه • واذا خافت النفوس صغرت واصبحت تمثل الدعة والهدوء وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك انهيار الأمة •

من اجل ذلك كانت باريس والقاهرة الملتقين الهامين للرجال الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد الثانى والذين بدأوا العمل خارج الأرض التى يمكن أن تمتد اليهم يد السلطان بالبطش والجور وأخذوا يعملون على اسقاط صرح الظلم والاستبداد الذى فرضه السلطان على دولته والتى كانتال بلاد العربية خاصه فى مشرقها ـ كما سبق أن أوضحنا ـ تمثل أحد أجزائها الرئيسية •

والمعروف أن السلطان عبدال حميد جاء الى الحكم سنة ١٨٧٦ بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس وكان الأخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته أقدمت الجماعة المستنيرة التى تزعمت حركة الاصلاح فى الدولة العثمانية على خلعه وكان يتزعمها مدحت باشا واشترط مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كى يجىء به الى الحكم أولا أن يصدر دستورا دون تأخير ثانيا انه كسلطان يتصرف فى مســـائل الدولة بناء على اســـتشارة الوزراء المســئولين ثالثا ان يعيد تعيين الرجال الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال وغيرهم • ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت ومن هنا يعرف هذا العهد بالشروطية الأولى • وصدر فرمان رسمى بالدستور فى ديســـمبر من نفس العام •

لكن عبد الحميد سرعان ما نكص على عقبيه فنفى مدحت وأجل اجتمـــاع مجلس المبعوثان (النواب) فى فبراير من العام

التالى ١٨٧٨ بحجة دخول تركيا الحرب مع روسيا وعادت الدولة الى نظام استبدادى فريد فى نوعه وانتشر التجسس وتفنن الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باسم الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية · وكانت تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الأشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا اشد انواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفى خارج البلاد · واهتم السلطان بتكميم الصحافة وجعل كل كلمة تقال أو تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكان يتحتم على كل مؤلف او كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقاله الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه وكثيرا ماكانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهز السنة الكاملة · وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالاة شديدة وانهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة · وفسد جهاز الدولة فلم تعد الاستعانة او الكفاءة سبيلا الى الترقى بل أصبح التملق والنفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم · وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطات وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية · كل هذا مع زيادة مرافقى السلطان ورجال حاشيته ·

وهكذا بدأت التنظيمات السرية تعمل ضد السلطان · تكونت جمعية سرية ثورية فى القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ والتى اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان عبد الحميد وبدأت الحركات السرية تنتشر من مدرسة عسكرية الى أخرى · كذلك نشط الأحرار فى المهجر وخاصة فى باريس حيث فر اليها عدد من الأحرار العرب فى مقدمتهم خليل غانم

وهو مسيحى عربى من بيروت كان نائبا فى مجلس المبعوثان عن احدى مناطق سوريا • فلما عطل السلطان عبد الحميد الدستور فر الى أوربا فى باريس حيث أسس جريدة تركيا الفتاة La Jeune Turquie بالاتفاق مع الأمير أمين أرسلان •

ولم يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب فى مختلف الصحف الفرنسية خاصة جريدة الديبا Deba كتب فيها مقالات يهاجم حكم السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه ادارة جريدة فرانس انترناشيونال France International ومن العرب الذين لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذى كان يعتبر من أكبر أعلام حركة المقاومة ضد السلطان •

وفى الوقت الذى كانت فيه باريس تمثل مركز هاما من مراكز تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد ، كانت مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين أبوا ان يستكينوا للضيم أو ان يهادنوا الظلم والاستبداد • وكان من الطبيعى ان تكون مصر هى المهجر القريب الذى تطلعت اليه قلوب الشاميين فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار أن يفروا من ربقة الاستبداد العثمانى الى مكان آمن • ولم يكن هناك خير من وادى النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك •

ولقى النازحون من الشام الى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أهلا بأهل واخوانا باخوان فشاركوا اخوانهم فى مصر الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسون باحساسها وتخالج قلوبهم آلامها وآمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثمانى المستبد •

وكانت مصر فى ذلك الوقت خاضعة للاحتلال البريطانى • والاحتلال يشجع كل حركة مقاومة للدولة العثمانية وتلقى منه ترحيبا وحاكم مصر الشاب آنذاك الخديو عباس حلمى الثانى ليس على وفاق مع السلطان • تولى عباس الحكم بعد وفاة والده الخديو توفيق فى السابع من يناير ١٨٩٢ وثارت مشكلة بسبب تعيينه ، ذلك انه كان ولد فى ١٨٧٤ وعندما توفى والده لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لا يحق له تولى منصب الخديوية ، ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجرى • وشهدت مصر فى هذه الفترة صراعا بين الانجليز يريدون ان تزداد قبضتهم على مصر وبين السلطان عبد الحميد يريد أن يثبت سلطاته عليها كولاية تابعة له • واقر السلطان عبد الحميد صدور الفرمان الخاص بتعيين عباس حلمى خديويا للبلاد ، فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة سيناء فطالب بان تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على أساس انها كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز واعارتها تركيا لمصر على عهد اسماعيل • وقبل عباس حلمى ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة اصدار فرمانه ، لكن انجلترا رفضت ذلك واصرت على صدور فرمان تعيينه على أن يتضمن الفرمان اسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر فى فرمانها الصادر لمحمد على سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا وحلت الأزمة •

فى ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد وسلطان الدولة العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب منه وتأييد •

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضة كشاب يرتقى عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن يؤكد انفصال مصر عن تركيا بل راودته فكرة ان تؤول أمور الخلافة

للمسلمين له بدلا من السلطان العثمانى . ومن أجل هذا اصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد .

جاء الى مصر ابراهيم اليازجى (بن ناصيف اليازجى) وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية فى الشام فهو صاحب القصيدة التى وصفها البعض بانها مارسيلية العرب (أشبه بنشيد الثورة الفرنسية) والتى قال فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
اقداركم فىعيون الترك نازلة
وحقكم بين ايدى الترك مغتصب
صبرا هيا امة الترك التى ظلمت
دهرا فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف ماربنا
فلن يخيب لنا فى جنبه ارب

ولم يكن من المنتظر أن تطيب الاقامة لابراهيم اليازجى فى بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية ، فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم فى ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ .

واقتفى اثر ابراهيم اليازجى شخصية سورية أخرى هو رفيق المعظم الذى أبى الاستكانة لظلم العثمانيين فى وطنه الشام فانضم

الى الجمعيات السرية المناوءة لهم · ثم ضاقت نفسه بالجواسيس يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ ·

كانت مصر فى ذلك الحين تموج فيها نهضة ادبية وثابة بفضل أعلام النهضة الأدبية فى ذلك الحين وفى مقدمتهم بطبيعة الحال الشيخ محمد عبده الذى عاد من عتقاه سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدر استطاعته متابعة الاصلاح قاصراً جهوده على الميدانين الاجتماعى والثقافى تاركا الميدان السياسى ·

يقول العقاد عنه لو اننا القينا على لسانه كلاما يقوله فى هداية التعليم كالذى قاله فى ضلال السياسة لخلناه قائما قاعدا يقول : « بارك الله فى العلم والتعليم وفى علم وتعلم ، وفى عالم ويعلم ، معلوم وفى كل حرف من حروف العين واللام والميم ! » ومن ابرز ما قام به الامام فى هذه الفترة تصديه للأزهر ومحاولة اصلاح حالة بعد أن عين عضوا بمجلس ادارته سنة ١٨٩٤ ثم تعززت مكانته الرسمية بتعيينه بمنصب الافتاء بعد ذلك بخمس سنوات ·

وجاء من بلاد الشام أحد مريدى محمد عبده وهو رشيد رضا الذى يعتبر احد رواد الحركة العربية بلا منازع · تكتم رشيد خبر سفره حتى لا يتسرب الى اذان جواسيس السـلطان عبد الحميد ومعاونه أبى الهدى الصيادى · وبدأ يبحث عن الشخصيات الأمينة التى يمكنه الاطمئنان اليها ويحصل على مساعدتها فى السفر الى مصر واستطاع مدير جوازات بيروت (ناظر النفوس) الشـيخ صالح الرافعى ان يساعده فى هذه الناحية اذ أخذ منه جواز سفر دون أن يعلم بذلك أحد وقبل أن يحين ميعاد الباخرة التى دبر رشيد رضا خطة سفره عليها ذهب لمقابلة اثنين من اعز اصدقائه ليخبرهما بما عزم عليه وأولهما عبد القادر القبانى وهو صاحب جريدة ثمرات الفنون وكان صديق الامام محمد عبده منذ كان منفيا فى بيروت ·

ودارت بين رشيد رضا وعبد القادر القبانى مناقشة كشفت عن الآمال العراض التى جاست بنفس هذا المصلح الشاب • اذ حين علم الأستاذ / عبد القادر القبانى من رشيد رضا برغبته فى السفر الى مصر وان هدفه من ذلك انشاء صحيفة اصلاحية هناك عرض عليه ان يقيم فى بيروت ويتولى رئاسة التحرير لجريدته • فقال له رشيد ان الحرية التى فى بيروت لا تسعنى • فقال القبانى اتريد أن تنتقد السلطان عبد الحميد أ وتخوض فى سياسته قال رشيد انما اريد اصـــلاح الأخلاق والاجتماع والتربية والتعليم قال : ان لك أوسع الحرية فى هذا قال رشيد اذا ردت ان اكتب فى فضيلة الصدق ومضار الكذب ومفاسده ، فأبين ان اكبر أسباب فشو الكذب فى الأمم الحكم الاستبدادى ، انتشر لى ذلك جريدتكم وعندئذ قال له الأستاذ القبانى لا لا عجل بالذهاب الى مصر ولا تخبر احداً •

ثم ذهب رشيد الى الأمير شكيب ارسلان وكان عقيما وقتذاك فى بيروت وأخبره بما عزم عليه باعتباره هو الآخر من مريدى محمد عبده ومن زعماء الاصلاح فى الشام •

ووصف رشيد رضا فى مذكراته ســـاعة رحيله وإمعانه فى التخفى عن عين السلطات العثمانية وساعده فى ذلك ناظر النفوس صالح الرافعى على نحو ماسبق أن أشرنا الى ذلك •

ووصلت الباخرة التى تقل رشيد رضا الى ميناء الاسكندرية يوم ٣ يناير ١٨٩٨ تجول خلالها أياما فى كل من الاسكندرية وطنطا والمنصورة ودمياط ثم سافر الى القاهرة ليلتقى بأســتاذه محمد عبده •

واستشاره فى اصدار جريدة واختار له محمد عبده اسم المنار وصدر العدد الأول منها كصحية أسبوعية فى ١٧ مارس ١٨٩٨

وحددت مقدمة هذا العدد الأغراض التى تسعى اليها هذه الجريدة وهى نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على أن الاسلام ، باعتباره نظاما دينيا لا يتنافر مع الظروف الحاضرة • وأوضحت هذه الافتتاحية أيضا ان غاية رشيد رضا من انشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى وخاصة فى سعيها للقضاء على الخرافات والاعتقادات الداخلية فى الاسلام •

وتوضح المقتطفات التالية من مقدمة العدد الأول منهج رشيد رضا اذ يقول اما بعد فهذا صوت صارخ بلسان عربى مبين ، ونداء حق يقرع من سمع الناطق بالفساد مسامع جميع الشرقيين ، ينادى من مكان قريب يسمعه الشرقى والغربى ، ويطير به البخار فتتاوله التركى والفارسى •

يقول أيها الشرقى المستغرق فى نومه ، المبتهج بلذيذ أحلامه حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة ، وكاد يكون اغماء أو موتا زؤاما ، تنبه من رقادك وامسح النوم عن عينيك •• لا يهولنك ما تسمع ولا يروعنك ما ترى ، واعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل ، فمن علم وعمل ساد ، ومن جهل كسل باد « وما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد » •

كذلك جاء مصر من الشام يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس واسس صروف مجلته الشهرية الثقافية المشهورة المقتطف فى ١٨٨٥ تلك المجلة التى استنفزت بدفاعها المسرف عن الانجليز سعد زغلول الى أن يستصدر رخصة لمجلة تحمل اسم (العدالة) ليرد بها على المقتطف ثم عدل عن اصدارها بعد تعيينه قاضيا • اما مكاريوس فقد أنشأ ١٨٨٦ مجلة اللطائف الادبية وأنشأ الثلاثة فى ١٨٨٩ جريدة المقطم اليومية السياسية • ولكن فارس نمر كان

هو القوة المحركة لهذه الجريدة ، وكان صـــروف ونمر ومكاريوس ثلاثتهم من خريجى الكلية الأمريكية ببيروت • وقد تزوج فارس نمر فى ١٨٨٨ بابنة قنصل انجلترا السابق فى الاسكندرية وزار لندن وتعرف على كبار رجال السياسة فيها • ووصف نمر الاحتلال بانه كان اكبر نعمة وسوف يستمر كذلك لهذا القطر • وكانت سياسة المقطم تقوم على أساس تدعيم سلطة الانجليز فى مصر مع تقويض سلطة الخديو والباب العالى • ولهذا وصفت مجلة الأستاذ فى عدد ٢٣ مايو ١٨٩٢ الثلاثة انهم التزموا فى جريدتهم اليومية تقبيد الأمة ، وتحسين الاعتراف بسلطة الغير والتلويح بما يشف عن سوء مقاصدهم فى الجانب الخديوى • أما الياس زاخورة فدافع عنهم فى كتابه مرآة العصر بقوله عن المقطم : « فقد يهتمها البعض بالمغالاة فى مدح المحتلين والتطرف بالطعن فى الدولة العثمانية ولكنها متى فعلت ذلك فهى تقف فيه عند حد الحقيقة لا تتعداها فى شىء الى ما وراء النزاهة •

وقد وجد الاحتلال البريطانى فى اكثر صحف الشوام أدوات نافعة لتبرير وجوده امام الرأى العام المصرى وبيان ما جلبه الحكم الانجليزى من خيراتومن ثم توسعالانجليز فى تعيينهم فى الوظائف• فلما اصدر رياض باشا فى سنة ١٨٩٠ قرارا بوقف توظيف الشوام فى المصالح الحكومية بسبب كثرة احتجاج المصريين من حرمانهم من وظائف استاثر بها غيرهم من أبناء الشــام ، تدخل المعتمد البريطانى لاصدار قانون ١٨٩٠ منح السورى الذى عاش فى مصر خمسة عشر عاما حق التوظف فى الحكومة المصرية • وكتب اللورد كرومر فيما بعد يقول فى كتابه مصر الحديثة طالما كان هناك جندى بريطانى واحد فى شوارع القاهرة فلنيصدر قرار يفرق بين الناس على أساس الجنسية أو الدين • وكتبت جريدة الاتحاد المصرى فى

عدد أول مايو ١٨٩٠ تقدم له وبلسان المصريين والسوريين واجب الشكر فهو صاحب الفضل الذى لا يعبأ بتفاوت المذاهب واختلاف المشارب بل يقابلها بكرامة الطبع واستقلال الضمير ٠ وشهد الله أن السوريين كاخوانهم المصريين لا ينكرون منافع الاصلاح الظاهرة على يديه ولا يملون من توجيه الثناء اليه ٠

أورد الدكتور سامى عزيز فى كتابه الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى أنه فى السنوات العشر اللاحقة للاحتلال البريطانى كانت هناك ٥٣ صحيفة ومجلة منها ١٣ سياسية و ٤٠ علمية وأدبية وقانونية وتجارية ٠٠ وكان أكثر مؤسسيها ومحرريها من الشوام فالى جانب المقتطف كانت هناك الشفاء لشبلى شميل وهى طبية وأصدر نجيب غرغور مجلة المنارة وهى أدبية والاعلان لحبيب فارس وهى تجارية والزراعة لديوب عون وهى زراعية ٠

ويفسر اللورد كرومر سر استعانته بالشوام لاتقانهم اللغتين العربية والفرنسية الأمر الذى فتح أمامهم باب المناصب الحكومية من أيام الخديو اسماعيل ٠ أما عبد الله النديم فيذكر فى (الأستاذ) عدد ٢٣ مايو ١٨٩٣ أن أصحاب المقطم وقياسا على ذلك بقيمة كتاب الشوام نزلوا مصر بعد أن كسر الاحتلال البريطانى أقلام أرباب السياسة فيما بين منفى ومشـــرد وســـجن وبهذا خلا لهم الجو ٠٠ » وقد طلب كرومر من الخـــديو نفى عبد الله نديم من البلاد لتهجمه على المقطم فنفى الى استنبول بعد آخر عدد صدر من الأستاذ فى ١٣ يونيو ١٨٩٣ ٠

كذلك أصدر خليل اليازجى وسليم عنحورى مرآة الشـــرق وميخائيل عبد السيد والكسان صرافيان جريدة الزمان وميخائيل عواد صحيفة الحضارة ٠

وكما استعانت انجلترا ببعض اقلام الشوام استعانت تركيا ببعض منهم مثل سليم باشا حموى صاحب جريدة الفلاح التى صدرت ١٨٨٥ للدعوة للسلطان عبد الحميد وأصدر أمين بك ناصيف فى ١٨٨٦ وهو لبنانى جريدة الصادق تحت رعاية الغازى مختار باشا (مندوب السلطان لبحث المسألة المصرية) ٠

كذلك جاء الى مصر الشيخ طاهر الجزائرى الذى لعب دورا هاما فى اليقظة العربية فى دمشق ٠ برز دور الشيخ طاهر خلال تولية مدحت باشا حكم دمشـق ، فبعد نفى مدحت خـــارج الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، عفى عنه ومما يؤثر عنه قوله حين جاء الى سوريا « ان مسليمها قد فشا بينهم الجهل ومدارس الافرنج تتقدم يوما بعد يوم تقدما ملموسا وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن فكنت افكر فى أمر تعليم ابناء المسلمين ٠ واصلاح مدارسنا ، وشكل مدحت باشا الجمعيات فى سوريا وجمع الاعانات وفتح المدارس ، كما انشأ مدرسة للصنايع وأخرى للفنون وملجأ للأيتام واصـــلح المساجد وجعلها مدارس ووضع عقوبة لولى أمر الطفل اذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله الى المدرسة واستعان بأموال الأوقاف فى أمور التعليم ، وتأسست فى عهده جمعية المقاصد الخيرية لانشاء المدارس ، وتمكنت من افتتاح خمس وثلاثين مدرسة ٠ وارتفع عدد الطلاب الى خمسة آلاف طالب بينما زاد عدد الطالبات الى الفين بحيث ضمت مدارس دمشق طلاب الشام وسدس وطالباتها ٠

وكانت هناك شخصية عربية من وراء مدحت تحثه وتقنعه ان الخطر كل الخطر ان ينهل الشباب الاسلامى من مدارس الارساليات التبشيرية تلك هى شخصية الشـــيخ طاهر الجزائرى ٠ لقد اقنع الشيخ الجزائرى مدحت باشا بذلك كمااقنع به بهاء بك رئيس ديوان

الولاية ٠ واعد الشيخ طاهر مشروعا لانشاء جمعية المقاصد الخيرية تكون شبه رسمية تعينها الحكومة بالمال وتخصص لها ابنية وقفية وحكومية وتوجه نشاطها لفتح المدارس ، وتكون مطبعة لطبع الكتب ٠ وظل الشيخ طاهر يدافع عن فكرته فى انشاء هذه الجمعية بعد نقل مدحت الى ولاية ازمير على عهد واليها الجديد حمدى باشا ، فاقنع الوالى الجديد بالفكرة ونجحت فى مهمتها ٠٠

ثم استطاع الشيخ طاهر أن يحقق امنية من اعظم امانيه وهى جمع الكتب الموقوفة على المساجد فى قبة الملك الظاهر بدمشق ، فتالفت من تلك الكتب نواة المكتبة الظاهرية التى تتبع اليوم المجمع العلمى العربى ٠ وقد جمع الشيخ فيها بضعة آلاف من المخطوطات العربية النفيســـة ومنها اليوم غرف للمطالعة ولبحث المخطوطات النادرة ٠

وفى أواخر سنة ١٨٨٢ أصــــدر السلطان عبد الحميد ارادة سنية باستبدال جميعة المقاصد الخيرية الاسلامية بمجلس معارف عين له رئيسا العالم الشريف محمود افندى حمزة مفتى دمشــــق وعلاء الدين افندى أحد علماء دمشق والشيخ طاهر الذى شــــغل آنذاك منصب مفتش معارف ونائبين للرئيس ٠ وتشكل من رئيس هذا المجلس ونائبيه وخمسة عشر عضوا آخرين مجلس ادارة يدير شئون المعارف فى دمشق ٠ ثم عادت حكومة السلطان عبد الحميد فالغت مفتشية المعارف وعينت الشيخ طاهر مفتشا لدار الكتب ٠

فى ذلك الحين كان يتحلق حول الشيخ طاهر صفوة المتعلمين فى دمشق فتالفت من جماعهم حلقة ادبية وثقافية كبرى كانت تدعو الى تعليم العلوم العصرية ودراسة تاريخ العرب وضمت هذه الحلقة عددا كبيرا ممن لعب دورا كبيرا فى تاريخ الحركة العربية امثال عبد الحميد الزهراوى ، رفيق العظم ، محمد كرد على ، فارس

الخورى ، عبد الرحمن شهبندر وسليم الجزائرى (بن اخ الشيخ طاهر وولى امره والذى استشهد على يد جمال باشا ابان الحرب العالمية الأولى .

قلنا أن هذه الحلقة كانت تهتم بالدراسات الدينية والأدبية وكان بودها دراسة العلوم والصنائع المختلفة لكن المتخصصين فى ذلك كانوا قلة .

يقول الأستاذ محمد كرد على ، أدركت مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانونى ولا صيدلى قانونى ولا حقوقى قانونى ممن درسوا هذه الفروع على الأصول وعرفوا صناعتهم معرفة تامة . وليس فيها محاسب لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بلا حساب ، اما العلوم الرياضية التى كان يدرســـها اجدادهم مع علوم القرآن والحديث ، فقد غدت عندهم اسماء بلا مسميات .

وتناولنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب كيف ســاعده الشيخ طاهر الجزائرى على مواصلة تعليمه بعد وفاة والده .

وفى مخطوط لمحب الدين الخطيب اوضح فى أوله جهود الشيخ طاهر الجزائرى فى نهضة الشام حتى اشتبهت فيه حكومة الاستانة فأرادت عزله من اشرافه على المعارف فى جميع الديار الشامية . فلما قيل لها ان الرجل لا يعمل الا للصالح العام والشعب مؤمن باخلاصه فاذا عزل كان لذلك وقع سيىء فى الديار الشامية فاحتالت على عزله بالغاء مفتشيات المعارف كلها فى جميع الولايات ليكون عزله كأنه غير مقصود فى الظاهر وبقى سنوات لا مورد له الا من بيع الكتب المخطوطة الموروثة له من والده (وكان والده مفتى المالكية فى دمشق) ومما اقتناه هو من النفائس ولا مستشرق قدرها كما يعرفها هو . وكان عزت العابد فى طفولته رفيق الشيخ طاهر فى

الدراسة فكانا يتناوبان الأولية فيه ، فى وقت تأسيس تشــكيلات المعارف فى سوريا تأسست أيضا تشكيلات العدلية (أى المحاكم المدنية) وكمـــا عين الشيخ طاهر مفتشـــا للمعارف عين عزت بك العـــابد مفتشا للعدليـــة واحتاج الى السفر الى الاستـــانة لبعض الأمور واتصل بالسلطات العثمانية التى اكتشفت ذكاءه فعين فى وظيفة الكاتب الثانى للسلطان عبد الحميد • فلما علم عزت العابد أن رفيق صباه الشيخ طاهر نحى عن مفتشية المعارف وانه يعيش من بيع كتبه أرسل له صديق لهما يقول له اختر أى وظيفة ترضى أعينك فيها فارسل لهالشيخ طاهر يقول : اذا نفذت كتبى وصرت أبيع ملابسى لا أقبل وظيفة من طريقك لأنك التحقت بالمابين (السلطات العثمانية) •

وظل الشيخ طاهر بدون وظيفة حتى سعى اثنان من أبناء الأمير عبد القادر الجزائرى هما الأمير محمد باشا والأمير محيى الدين باشا فى تعيينه فى وظيفة مفتش دور الكتب فى الديار الشامية كلها وفى خلال ذلك زار القدس وأقنع راغب الخالدى هناك بتاسيس المكتبة الخالدية وطبع فهرستها • فلما اشتدت المضايقة عليه نزح الى مصر • ويقول الخطيب عن حلقة الشيخ طاهر بانه قلما يسمع الزمان بمثلها فى بلد واحد ولاسيما اذ كان ذلك البلد فى مثل حالة النوم كذى كانت عليه دمشق ستغرقه فيه فى السنوات العشــــر الأخيرة من سلطنة السلطان عبد الحميد • ويوضح مكانة الشيخ طاهر حتى لدى المســـتشرقين وغيرهم انهم كانوا يعرفون قدرته ومكانته •

أما بتأثيره على الخطيب فيوضحه بقوله : ومن نعم الله على كاتب هذه السطور أنه عرف الشيخ طاهر من طفولته واتخذه أبا

ـ بعد موت والدى الشيخ أبى الفتح الخطيب فى المحرم ١٣١٥ هـ ، فعرفت طريقى بتوجيهه ونظرت الى أهدافى بعينيه وحررت رسالتى فى الحياة بالذوق والشرف اللذين اقتبستهما منه ٠

وأهم ما استفاده الخطيب من الشيخ طاهر أنه فى السنوات الأولى من دراسته تعلم حسب التثبت من كل شىء ، وعدم التسرع فى الحكم على أمر الا بعد الاحاطة بحقيقته والوقوف على دخيلته ٠٠ وكذلك تعلم منه الوفاء لهذه الأمة ومعرفة اقدار عظمائها والنظر بعين الرضا والحرية لتراثهم العلمى وجهادهم القومى وتضحيتهم لتكوين كياننا الذى يحتاج منا الى بعثه واعادة الحياة اليه ٠

وكما جاء الشيخ طاهر الجزائرى الى مصر فرارا من استبداد السلطان عبد الحميد الثانى جاءها كذلك عبد الرحمن الكواكبى سنة ١٨٩٩ ٠

وقد تناولنا فى كتابنا عنه قصـــة تصـــديه للحكم الحميدى فاستقال من وظائفه فى حلب وفتح مكتبا للمحاماه حتى الصقت به احدى التهم أنه منضم الى عصابة ارمنية وأنه أغرى بعض الناس برشق قنصل ايطاليا بالحجارة بقصـــد احداث فتنة بين الأرمن والمسلمين فى حلب وأنتهى الأمر بأن برأته محكمة بيروت التى حوكم أمامها وعاد الى حلب بعد العدة لمغادرة بلاد الشام الى مصر ٠

وكما تكتم كل أمراء الشـــوام خبر سفرهم الى مصـــر فعل الكواكبى ذلك حتى عن أقرب المقربين اليه فزعم أنه متوجه الى عاصمة الدولة العثمانية لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيل نهائى الى مصر ٠

ولم تمض على مبارحة الكواكبى حلب بضعة عشر يوما الا وعرف الناس بوجوده فى مصر وأخذت جريدة المؤيد تنشرله كتابه

الذى أسماه طبائع الاستبداد فى مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف · ويقول كامل الغزى فى ترجمته للكواكبى « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له مفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جميعة أم القرى فقد أطلعنا عليه مرارا · ثم انه طبع الكتابين وقام لهما فى المابين السلطانى ضـــجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية · بيد أنه رغما عن ذلك وصلا حلب على صورة خفية وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة ·

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبى والخديو عباس حلمى الثانى · ويبدو أن الكواكبى تعرف بالخديو عن طريق رشيد رضا والشيخ على يوسف فالمرحوم رشيد رضا فى سرده لتاريخ حياته يقول : كان الخديو عباس يثق بى وكان يستوقفنى كثيرا مع الشيخ على يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا فى بعض الشئون الحاضرة ·

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبى بالخديو عباس حلمى الثانى دليلا على أن الذى أوعز للكواكبى رحلته التى طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه · وان هذه الرحلة التى تمت بايعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية ·

وحالت وفاة الكواكبى المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربية دون تدوينه لاخبار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعدها بثلاثة أشهر وكانت الرحلة على مرحلتين أو على فترتين زار فيها عددا من البلاد العربية والاسلامية زار فى الأولى الســـودان ووصل الى زنجبار والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية · والكواكبى وان لم يذكر تفاصيل رحلته ذكر انه زار مصـــر ثلاث مرات المرة

الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبدالحميد وأما زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد اليها ليستعد لجولته الثانية ثم كانت الزيارة الثالثة حين انتهت رحلته وعاد الى مصر ليتوفى فيها ·

زار الكواكبى فى رحلته الثانية الحجاز وصحراء الجزيرة واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشى حيث عاد على ظهر سفينة ايطالية بتوجيهمن وكيل ايطاليا السايسى فى مسقط طافت به سواحل العرب وسواحل افريقيا الشرقية · وعاد الكواكبى من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية حتى أنه استحضر نماذج المعادن من تلك الاصقاع ·

وكان الكواكبى يتمنى لو اتيحت له زيارة بلاد المغرب العربى ولكن المنية حالت دون ذلك ·

كذلك جاء الى مصر محب الدين الخطيب وهو فى طريقه من بيروت الى اليمن التى عين فيها ترجمانا للقنصل البريطانى فى الحديدة · فرسم الخطيب خطة على أن يقضى بها شهرا (شهر اكتوبر ١٩٠٧) بعد أن تحدد سفره لاستلام وظيفته فى الشهر التالى ·

رسم مح بالدين خطة أن يقضى شهر اكتوبر فى مصر الى جانب شيخه وأبيه الروحى الشيخ طاهر الجزائرى وصديقه محمد كرد على ثم ليكون على حد قوله على مقربة من مركز النهضة الأدبية والعربية (يقصد مصر) وليتصل ـ على قدر الامكان بأركانها وأعلامها ويسافر من مصر الى الحديدة فى أول نوفمبر ·

ويروى محب الدين فى أوراقه المخطوطة انه قضى الأسابيع القليلة الباقية على سفره من دمشق الى القاهرة فى أنها من المركن

العام لجمعية النهضـــة العربية • ولم أجد من أوراق الخطيب ما يوضح ان هذه الجمعية كان لها نشاط ســـياسى ، فهى من هذه الناحية لا تختلف عن الجمعيات العربية الأخرى التى تشكلت فى فترات ســـابقة على الزمن من حيث مدارســـة آداب العـــرب وتاريخهم •

لكن أهم ما امتازت به جمعية النهضـــة العربية التى أسسها الخطيب انها ضمت الشباب العربى الذين نفر من التبشير ومدارسه وأراد أن يعمق جذور القومية العربية على أسس اسلامية ومن أجل هذا كان رائدهم الشيخ طاهر الجزائرى •

ولزيارة محب الدين الخطيب للقاهرة أهمية خاصة فى مراحل حياته • ففيها كما يذكر سعد كل السعادة بلقائه بمحمد كرد على الذى أرسل شقيقه لانتظاره فى محطة ســـكة حديد القاهرة ونزل ضيفا عليه فى منزل كان يسكنه فى أول شارع الشيخ ريحان وما ان سمع الشيخ طاهر بقدومه حتى حضـــر اليه مرحبا مهنئا تلميذه بسلامة الوصول وذهب معه لزيارة رفيق العظم والتقى أعضـــاء جمعية النهضة العربية الموجودون فى القاهرة مثلما كانوا يلتقون فى دمشق ودار الحديث عن جمعية النهضة وأهدافها وأمال محب الدين الخطيب فيها • وكان محمد كردعلى قد نشر فى مجلة المقتطف سلسلة فصول بعنوان (عمران دمشق) فعرض محب الدين على كرد على أن يتولى جمعية النهضة جمع هذه الفصول وطبعها فى كتاب •

ومن أهم ما حرص عليه الخطيب اثناء وجوده بالقـــاهرة قضاؤه وقتا كبير بدار الكتب المصرية للالمام بما تحتويه من كتب ومراجع وذلك فى الوقت الذى كان صديقه كردعلى مشغولا بعمله

فى جريدة المؤيد التى كان يصدرها الشيخ على يوسف وكان يزور القاهرة فى وقت وجود الخطيب بها أحد كبار أعيان مسلمى روسيا اسمه اسماعيل بك عنبرنسكى وقد جاء الى مصـــر للدعوة الى عقد مؤتمر اسلامى فيها لدراسة أحوال المسلمين عموما ومسلمى روسيا على وجه الخصوص ٠

ويوضح الخطيب استياء رجال الحزب الوطنى فى مصر من ميل هذا الرجل الروسى الى التعاون مع الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وذلك لما كان بين رجال الحزب الوطنى فى مصر والشيخ على يوسف من جفاء كما يذكرانه حصلت مشادة فى بيت رفيق العظم حول اللجنة التى يراد تاليفها لعقد المؤتمر وهو الأمر الذى الذى عرقل الدعوة اليه ٠

وانقضت الأيام التى حددها محب الدين الخطيب للاقامة فى القاهرة بسرعة الأمر الذى حال بين تمكنه من تلبية دعوة مصطفى صادق الرافعى الأديب المعروف وسنرى عند حديثنا عن التحرك العربى على الأرض المصرية أهمية هذه الزيارة فى انضمام الخطيب الى جمعية الشورى العثمانية ٠

والمعروف ان الخطيب جاء الى مصر ليقيم فيها بصفة نهائية بعد ذلك عقب انهيار حكومة فيصل فى دمشق وحين جاء الى مصر عرض عليه نجيب الارمنازى أن يحل محله فى تحرير الاهرام ولبث يعمل فيها نحو خمس سنوات الى أواخر سنة ١٩٢٥ وكان فى خلال ذلك قد أسس الى جانب المكتبة السلفة ومطبعتها ـ مجلة الزهراء وهى مجلة أدبية اجتماعية شهرية استمرت فترة خمس سنوات بدأت فى أغسطس ١٩٢٤ ٠

ثم اسس صحيفة الفتح فى مايو ١٩٢٦ وظلت تصدر حتى نوفمبر ١٩٤٨ وعن طريقها مضى يكمل رسالته فى خدمة امته العربية حتى وافته المنية ديسمبر ١٩٦٩ م ومنذ مجيىء الخطيب الى مصر لأول مرة أحب ما فيها من نهضة وتمنى أن يتحرك زملاؤه اعضاء جمعية النهضة العربية لشراء مطبعة مثل مطبعة المؤيد واصطناع حروف مثل حروف مطبعة المعارف فى القاهرة وتسمى هذه المطبعة مطبعة النهضة العربية واصدار جريدة بنصف قطع الجرائد العربية ولكن فى ستة اشهر نشر صحيفة نصفها مكون على ورق بسيط كورق المؤيد ويكون للاخبار الوقتية والاعلانات اما النصف الثانى على ورق جيد مثل الهلال ويكون للمقالات والقصائد والأقوال والاخبار الخالدة وان تكون هذه جريدة يومية اسمها النهضة العربية • ورأى أنه من الأفضل أن تصدر فى القاهرة كجريدة سياسية مصورة •

كان الخطيب فى تقريره الذى بعث به من اليمن الى زملائه اعضاء جمعية النهضة العربية حريصا على أن يكاشفهم بالحقائق عن الآمال التى يحلم بها لأمته العربية •

يقول الخطيب نريد أمة جديدة فاضلة وتتطلب المنفعة المشتركة وتحب الدأب على العمل والاعتماد على النفس ، مركبة من حكومات متحدة جنديتها ، ماليتها ومعارفها واحدة • تدار كل واحدة منها فى باقى فروع الحكومة حسب ما تقتضيه بلادها وتاريخها • على أن تكون كلها ديمقراطية نعم نريد ذلك غير متعجلين ولا نحن مقيدون بزمن •

ويرى الخطيب أن السبيل لتحقيق ذلك هو انشاء المدارس والاهتمام بالصحافة والطباعة والتمثيل والجمعيات والخطابة

وانشاء الشركات ثم يناقش وضع أمته العربية فيقول لزملائه فى نفس تقريره ٠

مدارسنا ! تعلمون ماهى مدارسنا نحن ليس لنا مدارس ٠ ان ما فى بلادنا من هذه المعامل اما الخورى او لشيخ او لسائس أو الادارى وكلهم غيرنا لأنهم يأخذوننا الى غير الكعبة التى نحن ذاهبون اليها ٠ صحافتنا ٠ آه ماذا أقول عن صحافتنا أنتم تعلمون صحافة سوريا ٠ واقول لكم عن صحافة وادى النيل أن محورها الأساسى المنعفة الشخصية وكفى لهذه الصفحات القليلة التى اكتبها كلمة كهذه فى وصف صحافة مصر ٠ أحزاب متباينة ومشاغبات وليس فى أعمدتها مع ذلك ما يفيد فائدة تمسك وتلمس بالأيدى ٠

ويذكر اخوانه بكلمة للشيخ طاهر الجزائرى وهى : ان الأمة لاتزال الآن فى سن الطفولة ودعوتها الى مطالعة النافع يجب أن تكون بالاحتيال عليها واستعمال الوسائط لنشر ما ينفع منها أو ما يقال من أن الأمة لا تقرأ النوع الفلانى من الكتابات هو حديث خرافة ٠ اذن فمن الممكن اذا أحسنت اشاعة النافع واعلانه ان تقبل عليه الناس ٠

ويشير الى أن مستوى الجمعيات والخطابة فى البلاد العربية هى دون المستوى شأنها شأن الصحافة العربية وأدنى منها الشركات « لأننا لا نرى سكة حديد حتى الآن وما أشبه هذا اجتمع على انشائها جمع من تجارنا واغنيائنا لكنه لاباس فيقول ولكن الأمة لا تخلو على ما يظهر من نبضات بين عروقها ٠ وان المتحرقة أكبادهم من الشبان ليسوا بالقليلين كما انهم ليسوا ايضا كثيرين فمن هؤلاء يجب أن نبحث وحال هؤلاء يجب أن يدرس وهؤلاء يجب أن نكاتبهم ونصادقهم ٠

ويتأسف انه لم تتح له اثناء زيارته مصر أن يجتمع بالعديد من أدبائها وبخاصة مصطفى صادق الرافعى الذى بعث له سلاما وتحية مع صديقه محمد كرد على والى جانب الصحيفة اليومية التى اقترحها الخطيب اقترح اصدار مجلة سياسية اجتماعية فى اول كل شهر عربى وفى نصفه وتسمى مجلة النهضة كما اقترح اصدار مجلة علمية اجتماعية على راس كل شهر عربى تكون فى عشر ملازم يتولى تحريرها صلاح الدين القاسمى ويشاركه فيها بقية أعضاء الجمعية مثل زكى الخطيب وغيره وتسمى مجلة العلم والاجتماع كما أشار على زملائه بعمل مجلة أدبية تنشر فى منتصف كل شهر عربى تكون فى عشر ملازم ويتولى تحريرها عارف الشهابى ويعنها عليها صلاح القاسمى وتدعى الأدبيات وتكون مصورة ٠

ولكن شيئا من ذلك لم يتم لسبب بعد الخطيب عن اخوانه ثم بسبب سفر عدد منهم الى مصر مؤثرا ترك بلاد الشام التى انتشر فيها الاستبداد الحميدى آنذاك ٠

الفصل الثالث

التحرك العربى على الأرض المصرية

اتيحت للاشقاء من ابناء الشام الذين جاءوا الى مصر فرصة الحركة والتصدى لاستبداد السلطان عبد الحميد الثانى ونشير فى هذا المقام الى الدور الرائد الذى قام به عبد الرحمن الكواكبى ٠

ولكن نعرف اهمية الدور الذى قام به الكواكبى عندما جاء الى مصر ينبغى أن نشير أنه وان كان معروفا بين الكتاب والأدباء العرب قبل مغادرته بلاد الشام فانه برحيله منها الى مصر واقامته فيها برغم قصر تلك المدة التى لم تتجاوز ثلاث سنوات (فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفى على أرضها مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ) عمت شهرته آفاق العالم العربى وخاصة بما خلفه من كتابيه الخالدين أم القرى وطبائع الاستبداد ٠ وقد تناولنا ذلك فى كتابنا عنه يقول المرحوم الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه ميلاد دولة ليبيا الحديثة المجلد الثانى ان الزعيم الليبى بشير السعداوى ذكر له ان نسخ كتاب طبائع الاستبداد لم يقتصر تسريبها من مصر الى بلاد الشام فحسب بل وجدت كذلك طريقها الى طرابلس الغرب ٠ والمعروف ان

مقالات هذا الكتاب قد نشرت سنة ١٩٠٣ بعد وفاة الكواكبى بعام ٠ فكان من الكتب التى تركت أثرا عميقا فى نفس بشير السعداوى من حيث أن كراهية الاستبداد صارت متأصلة فى نفسه ، وازداد ايمانه بوجوب انشاء الحياة الحرة الديمقراطية والتعجيل باعلان الدستور، حتى تستطيع الدولة مؤئل خلافة المسلمين ان تحفظ كيانها من جهة ، وان تنهض بالشعوب الاسـلامية من جهة اخرى ٠ واجتهد بشير السعداوى ليقف على شىء من سيرة عبد الرحمن الكواكبى الذى كان قد توفى حوالى هذا الوقت (١٣٢٠ هـ) فعرف انه اشتهر بكراهيته للاستبداد والظلم ٠٠

على أن الجديد فى تفكير الكواكبى والذى استدعى انتباه بشير السعداوى هو محاولته أن يفرق بين الدعوة لاحياء العالم الاسلامى ، وانشاء الرابطة أو الجامعة الاسلامية التى تحقق فى نظر الداعين اليها البعث الاسلامى نفسه ، وبين الدعوة لنهضة الأمة العربية واستثارة العزة العربية فى نفوس الأمم العربية التى يفرق بينها وبين سائر الأقوام الاسـلامية ، بما فى ذلك الأتراك أنفسهم ، اختـلاف الجنس وقد أنبت على التفرقة بين الاتحاد الاسلامى ، والنهوض العربى ، تفرقة أخرى بين الخلافة الاسلامية فى وضعها الراهن وقتئذ وقد احتوتها الدولة العثمانية ، وبين ما يجب أن يكون عليه وضعها ، بما يتفق والصلة الوثيقة بين الاسلامية والدور الذى قام به العرب فى انتشارها ودعم أركانها ، الأمر الذى يوجب أن يسترد العرب الخلافة من العثمانية فينصبوا خليفة من قريش ٠ وقد دعا الكواكبى لاقامة الخلافة العربية فى قريش صراحة فى (أم القرى) عند راح يتكلم باسهاب عن « اعزاز الدين بالعرب ، دون دولة آل عثمان وملوكها العظام » وطالب باقامة خليفة عربى قرشى مستجمع للشرائط فى مكة » ٠

وكان مما لاحظه بشير السعداوى ان هذا الأسلوب الجديد فى التفكير، وان اتفق وما تغلغل فى نفســـه من الايمان بالفترة الاسلامية والشعور بالعزة العربية ولم يكن يختلف فى الوقت نفسه عن الآراء التى نادى بها كل اولئك الذين تأثروا بآرائهم من الكتاب والفلاسفة مثل الأستاذ الامام محمد عبده وجمال الدين الافغانى • لكن آراءه كانت تناقض ما ذهب اليه كل من الافغانى ومحمد عبده فالأول يرى ضرورة توحيد العالم الاسلامى تحت حكم خليفة واحد سواء أكان هذا الخليفة عربيا أم تركيا أم مصريا أم غير ذلك طالما كان له من القوة ما يجعله قادرا على الاحتفاظ بسلطاته فى عقر داره فحسب ، بل ومعاونة الأمة الاسلامية على النهوض حتى تبعث بعثا جديداً تتحرر بفضله من كل القيود المعروفة لتقدمها الداخلى وحتى يتسنى لها أن تدفع عن نفسها شر الاستعمار الأجنبى والثانى من حيث أنه يرى من شرائط بعث الاسلامية من الناحية السياسية أن تبقى الخلافة عثمانية وان يقوى ويشتد ساعد هذه الخلافة العثمانية لمناط آمال المسلمين • وكان وجه الخلاف بين هذين وبين عبد الرحمن الكواكبى انه ـ يرفض أن تظل الخلافة (عثمانية) ويريدها أن تكون عــــربية •

ولقد كان لفكرة الخلافة العربية التى ابتدعها عبد الرحمن الكواكبى اثر فى تطور الفكرة العربية عند بشير السعداوى وغيره من الرواد العرب فى مشرق الأمة العربية ومغربها على السواء •

اذا ما قارنا الكواكبى بنجيب عزورى الذى أصدر كتابا له فى باريس سنة ١٩٠٥ باللغة الفرنسية بعنوان (يقظة الأمة العربية فى آسيا التركية) نجد الفارق كبير فالأول (الكواكبى) صار بفضل ما نشره فى مصر (كتابه أم القرى وطبائع الاستبداد علما من أعلام الحركة العربية بلا منازع • ولايمكن لدراس التاريخ الحديث أن يؤرخ للحركة العربية دون أن يشير بالدور الكبير الذى قام به

الكواكبى فى هذه الحركة • لقد أحدثت كتاباته استنهاضا للهمم ودعوة للثورة على الاستبداد ونبذ الجهل والأخذ بأساليب التقدم •

كان عزورى نائبا لمتصرف القدس ثم ضاقت نفسه كشأن كل الأحرار بأوضـــاع الدولة العثمانية فى ظل السلطان عبد الحميد الثانى فغادرها الى باريس التى كانت أحد المراكز الكبيرة لاقامة الأحرار العثمانيين • وهناك أصدر كتابه الذى طالب فيه بانشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم ســـوريا والعراق ولبنان ونجد واليمن والحجاز فى شكل اتحادى وانيعهد بالخـــلافة الى شريف الحجاز حيث يصبح هذا الخليفة العربى صاحب سلطة معنوية على جميع مسلمى العالم •

لم تكن لدعوة عزورى التأثير الذى بلغته دعـــوة الكواكبى لدرجة ان الأمير مصطفى الشهابى فى كتابه محاضرات عن القومية العربية يؤكد أن أحدا لم يهتم بها لكنه لايمكن ان تنكر دور كتابات عزورى الى هذا الحد لكن قراءه ومحيط انتشار كتابه كان محدودا اذا ما قورن بالكواكبى •

وقد خص الكواكبى مصر بقدر كبير بين أقطار العالم العربى وهو يتفق مع الافغانى فى هذه الناحية • نجد الكواكبى يختار مصر مقرا مؤقتا لجمعيته ألتى اسماها جمعية تعليم الموحدين وهى التى قررت جمعيته أم القرى وجودها بهدف تعليم المسلمين شئون دينهم الصحيح واصـــلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية • والمعروف أنالكواكبى فى كتابه أم القرى تخيـــل اجتماعا لعلماء المسلمين بمناسبة موسم الحج عقد فى مكة أم القرى لبحث علة المسلمين وأدلى كل عالم بدلوه فى هذا السبيل ثم انتهى الى تشخيص الدواء على نحو ما بسطناه فى كتابنا عنه •

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتمـــاعاتها التى تخيلهـــا الكواكبى أقرت قانونا بانشاء بجمعية تعرف تعليم الموحدين من مائة

عضو منهم عشرة عاملون وعشرة مســـتشارون وثمانون فخريون واشترط فى الأعضاء العاملين والمســـتشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة بالعربية ومهمة الجمعية الا تتدخل فى السياسة وانما مهمتها تعلم القراءة والكتابة والترغيب فى العلوم واصلاح أصول تعليم اللغة العربية . وكان الكواكبى يرى أن أحد أسباب أعراض الناس عن تعلم اللغة العربية هو ســـوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة بأشياء صعبة على المبتدىء فى تعلم هذه اللغة وللجمعية مهمتها فى المجال الدينى ، ونشر بحوث شهرية فى الأمور الدينية تستهدف تعليم المسلمين أصـــول دينهم الصحيح دين السلف الصالح وتهتم الجمعية باعداد ثلاثة منها كى يكونوا مرشدين ومبعوثين فى البلاد الاسلامية المختلفة .

وهكذا يرى الكواكبى أن مصر هى خير البلاد العربية التى يعول عليها فى تعليم اللغة العربية وأصول الدين الاسلامى وقال فى هذا الصدد :

ان جمعيتنا هذه أختارت ان تجعل مركزها المؤقت فى مصر دار العلم والحرية فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز عباس الثانى يكون عضدا للقائمين باعزاز الدين ورئيسا فخريا للجمعية . ولابدع فانه خير أمير شـاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العـــربية خصوصا جنابه السامى من آل بيت حازوابين سائر ملوك الاسلام وامرائه قصب السبق فى الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا فى الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى ان النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة فى مصر ومقتبسة عنها ، بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات فى ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدى المرحومين محمد على وابراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات ، فما كان رشيد وعالى وفؤاد كمال ومدحت وعونى وبقية

أحرار الأتراك الا وأكثرهم آلات أوجدها ومدها بالقوة هؤلاء العظام، ولا غرو فقد يحمل الابن اباه على الرشد وان أباه .... » .

كا نالافغانى يرى نفس الرأى فهو يعلق اهمية خاصة على مصر فى اصلاح أحوال المسلمين فقا ل: فى صون مصر فى حوزة الملك الاسلامى وكشـــف الانجليز عنها صون للممالك العثمانية . وغلق لكل بلية مهياة فى المسألة الشرقية .

أما الفرق بين دعوة الكواكبى ودعوة الافغانى هو أن الكواكبى كان صاحب دعوة قومية يركز على حق العــــرب فى قيادة الأمة الاسلامية وعلى ضرورة تحررهم منالـ نير التركى وعلى هذا ينبغى أن يتركالـ عثمانيون الخلافة الاسلامية الى العرب فهم أهلها وأحق بها، ولا سبيل لاصلاح العالم الاسلامى الا أن يكون الخليفة عربيا قرشيا . أما الأفغانى فكانت دعوته دينية لا يدعو لقومية من القوميات فهو يلتمس صلاح العالم الاسلامى ويبحث فى مواطن علته وضعفه ويرى أن حركة الاستعمار الأوربى حركة دينية بالدرجة الأولى وانها امتداد للحركة الصليبية .

وقد قدم لوثروب ســــتودوارد مؤلف كتاب حاضــــر العالم الاسلامى الذى ترجمه وعلق عليه شكيب ارسلان ، ملخصا لدعوة الافغانى وفكرة الجامعة الاسلامية على النحو التالى : العـــالم النصرانى على اختلاف اممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ىك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا . الروح النصرانية متحدة لم تبرح كامنة فى النصارى كون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشـــائها

ومتمشــيا فى كل عــرق من عروقهــا وهى أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت تنتحل الدول النصرانية اعذارا لها فى كرهها وهجومها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراها بقولها ان الممالك الاسلامية هذه ، انما هى من الانحطاط والتدنى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شــئون نفسها ، وفق جميع هذا فهذه النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواحى اخــرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة • •جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامى يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفســه من القضاء المقبل وللوصول الى هذه الغاية الكبيرة انما تجب عليه اكتناء الغرب الوقوف على تقدمه وقدرته •

ويرى بعض المؤرخين فى كلام الافغــانى انه يأخذ حـركة الاستعمار الأوربى على انها حركة دينية نصرانية موجهة ضــد الاسلام وهو تفسير يتغافل عن العوامل الموضــوعية والبواعث الجذرية للاستعمار وهو لا مجال لبحثه هنا •

لكننا نريد أن نقول ان هناك فرقا بين دعوة الافغانى والكواكبى فالأخير يرى ان أمر هذه الأمةالاسلامية لا يصلح الا بماصلح به أولها وهو أن يكون للعرب دور الريادة فيها ونعى على العثمانيين هضمهم لحقوق العرب ورأى أن السبيل لنهضة الاقطار الاسلامية هى فى قيادة العرب لهم ومن ثم اقترح فى جمعية أم القرى جمعية مركزها مصر للتثقيف والتعليم والدراسة ولم ير خيرا مـ نمصر مركزا ومقرا لهذه الجمعية •

واذا كان ذلك هو ما ارتاه الكواكبى فان رشيد رضا قد آمن بنفس الشىء ومن ثم كان انشاؤه لمدرسة الدعوة والارشاد فى مصر ٠

كتب رشيد رضا فى المنار عدة مقالات توضح فكرته فى انشاء مدرسة جديدة هدفها اصلاح الدين وتخليص اتباعهما علق بأذهانهم من أدران الأوهام والخرافات والبدع ٠ وبدأت تتبلور فى ذهنه فكرة انشاء المدرسة ورأى أن أهم ما يحتاجه الدين الاسلامى هو الدعاة المؤمنين بما يدعون اليه المسلمين بأمور هذا الدين ، وعندما ناقش أصدقاءه فى مصر فى هذا الموضوع وجد عندهم استجابة عالية ، واستعدادا للمعاونة ٠

وكان مما حبذ الى رشيد اخراج فكرة المدرســة الى حيز الوجود هو المكاتبات التى وردت اليه من شتى البلاد الاسلامية تستنجد به ضد نشاط المبشرين الاستعماريين اذ استهدف الاستعمار فى تلك المرحلة من نشاطه فى العصر الحديث اثاره الشكوك حول العقيدة الاسلامية وأخطر من ذلك ما كان يقوم به بعض المبشرين فى الجهات الاسلامية النامية أو التى يوجد بها جماعات دينية تعيش بجوار المجمو عات الاسلامية كما هو الحال فى جاوه وغيرها ٠ وكان المنار قد صار له قراء عديدون وأتباع يراسلون رشيد يستغيثون به فبعث أحد السائحين المسلمين بسنغافورة الى رشيد رضا كتابا مؤرخا فى ١٩١٠ جاء فيه ٠ انى قد ترددت الى جاوه ومتعلقاتها منذ ثلث قرن وقد تبين لى أن دعاة الاستعمار (من الهولنديين) قد أضروا بالاسلام وأهله لتغلب الجهل عليهم لمنع الحكومة الهولندية دخول دعاة المسلمين وحجتهم أنهم ليسوا علماء بل دجاجلة ٠ وكل من منعته وطردته ليس من متخرجى المدارس ٠ هالنى ما رأيته فى سياحتى هذه ، فان الداء قد تمكن وفتك بالأهالى فتكا ذريعــا ٠

وبالجملة اقول ان المتنصرين سنويا من مسلمى جاوه ومتعلقاتها لا يقلون عن مائة الف انسان .. ولو وجد عالم له المام ببعض الدعوة وبعض المعرفة بلغة أوروبا وكان ذا عقل واعتدال وساح فى هذه النواحى لوقف هذا التيار الجارف فكيف لو وجدت بعثة كالبعثات الأوربية .

وظن رشيد رضا أن المسئولين الأتراك الجدد الذين آل اليهم أمر الدولة العثمانية بعد زوال حكم عبد الحميد قد يساعدونه فى فكرته . ولكن خاب أمله بعد زيارة للاستانة فعاد الى مصر موقنا أن السبيل الأمثل هو الاعتماد على تبرعات الأهالى وذوى الثراء . ونجح فى تأسيس مدرسته سنة ١٩١٢ وجاء فى مشروع تأسيس المدرسة أن تضم طلابا من مسلمى الأقطار الاسلامية ويفضل الذين هم فى أشد الحاجة الى العلم كأهل جاوه والصين والدراسة داخلية توفر المدرســـة الغذاء والنوم والكتب ويعتنى بتدريب الطلبة على آداب الاسلام وأخلاقه وعباداته فيعيش الطلبة فى جو اسلامى نقى بحيث يطرد الطالب اذا ثبت عليه الكذب أو اظهر تعصبا لجنس أو مذهب أو ارتكب شيئا من المعاصى . وحرم على الطلبة الاشتغال بالسياسة وانما دراسة العلوم الدينية كالعقائد والتفسير والحديث والأحكام على الوجه المؤدى الى القدرة على اقامة الحجة ودحض الشبهة وما يحتاجون اليه من العلوم الرياضية واللغات وتعتمد المدرسة على جمع التبرعات من أهل الخير .

وكان الطالب يعطى شهادة مرشد اذا قضى ثلاث سنوات فى الدراسة ونجح فيها ، وهذه الشهادة تؤهل الطالب للقيام بالدعوة والارشاد بين المسلمين أو التدريس فى مدارس الجمعية أما اذا أراد الطالب مواصلة الدراسة بعد هذه المدة ثلاثة أعوام أخرى فان هذا يؤهله لأن يصبح داعيا من الدعاة ، أى أولئك الذين يقومون بدعوة

غير المسلمين الى الدخول فى الاسلام ، وكان على الطالب أن يتعهد بقبول التوجه الى أى بلد يراد ايفاده اليه ·

وقد أشرنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب الى أنه سعد كل السعادة حين دعاه رشيد رضا ليكون أحد أساتذة هذه المدرسة فيقول فى مذكراته « وأسس السيد رشيد رضا دار الدعوة والارشاد واتخذوا لها مكانا فى قصر شريف باشا على يمين الداخل الى جزيرة الروضة من كوبرى الملك الصالح واختارونى مدرسا للجيولوجيا وبدأت التدريس بنمط جديد لفت نظر طلبة هذه المدرسة الدينية الاسلامية الى سرائر الله فى الكون وتكوينه وكان من طلبة تلك المدرسة الحاج أمين الحسينى ويوسف ياسين ومحمد الشريفى وآخرون صاروا فيما بعد كلهم علماء وكلهم يقولون لى حتى الآن انت أستاذنا للمحبة التى استطعت أن أعقدها بين قلبى وقلوبهم مدة الدراسة وبعدها ·

وفى نفس الشهر الذى تم فيه افتتاح المدرسة اتيحت لرشيد رضا زيارة بلاد الهند والقى خطابا فى ندوة العلماء بلكنهوه بالهند موضحا تجربته فى ميدان التربية والتعليم وعندما عاد تابع الاشراف على مدرسته حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث تعطلت الدراسة بها ولم تفتح أبوابها مرة أخرى بعد أن شغل رشيد عنها بالمرحلة الجديدة التى دخلتها الحركة العربية مع اندلاع تلك الحرب ·

وهكذا بفضل وجود رشيد رضا على أرض مصر ، استطاع أن يصدر المنار وأن يؤسس دار الدعوة والارشاد مثلما استطاع الكواكبى أن يخلد نفسه بهذين العملين العظيمين الذين صدرا له فيها وهما طبائع الاستبداد وأم القرى · كانت مصر هى التربة الصالحة لهذين العملاقين كى يدخلا أبواب الاصلاح الدينى والاجتماعى للأمة العربية فضلا عن الجوانب السياسية ·

حملت المنار الدعوة مطالبة باستعراب الأتراك وطفحت بالمقالات عن العرب وأمجـــادهم القديمة وتاريخهم الحافل بالبطولات عن الوحدة العربية التي كان ينشدها رشيد ضمن الرابطة العثمانية . وتمنى لو أن سلاطين آل عثمان نحوا نحو السلطان سليم الأول في تفكيره يجعل اللغة العربية لغة الدولة . ولو أنهم جعلوا ولاياتهم كالولايات المتحدة في أمريكا تستقل كل ولاية في ادارتها الداخلية ويكون حكامها منها . وقد ضمن السيد رشيد رضا مجلته منذ عام ١٨٩٧ مقالات تحمل عناوين تتحدث عن الدين والدولة ، والخلافة والسلطنة، اعادة مجد العرب، الوحدة العربية، الترك والعرب وأفكارا جريئة منها أن نجاح الأمة والدولة العثمانية وارتقاءها الكامل متوقف على وحدة لغتها وأن اللغة العربية تترجح على التركية بأمور منها كونها لغة الدين ، وامكان نشرها بسهولة ، لأن التركي مضطرا الى تعلمها طالما هي لغة دينه ، وأما العربي الذي لا طمع له في مناصب الدولة فلا يهتم بتعلم اللغة التركية . ومنها أن الناطقين باللغـــة العربية في الدولة اكثر عددا ، وأن علماء المسلمين بما فيهم الأتراك في جميع أقطار العالم يعرفونها . لذلك يجب أن تكون هي لغة الدولة، وأن مكة باعتبارها مقصد حج المسلمين في كل عام ، هي الأفضل من الاستانة كمركز للخلافة . ومنها ما جاء في مقال الترك والعرب مايرى الى اثبات أفضلية العرب على الترك بمعارفهم وبالمامهم الطويل في العلوم والزراعة والطب والفلك والفلسفة الى آخر ماشادوه من حضارة ومدنية وهشت المتتبعين لأخبارهم ، وأن انضواءهم في ظل العالم العثماني هو الذي أخرهم . وظهرت المقالات منذ ١٩٠٤ في صفحات المجلات في مصـــر بعضها يناصـــر حق الأتراك في الخلافة والآخر ينكر عليهم ذلك .ففي مقال بجريدة (ترك) الصادرة بمصر بعنوان « دعوة الخلافة » هاجم كاتبه العرب ونسب اليهم التبجح بدعوى الخلافة ، ونفى عليهم حب زعمه اتخاذهم الأوهام

الباطلة والأسس الواهية لنسبتهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن بالعربية حجة على تاييدهم دعواهم قائلا انه لا يروقهم كون الخلافة فى يد الترك ورد صاحب المنار ينفى عليه مزاعمه وأن ليس بين العرب من ترنو نفسه الى منصب الخلافة ، ولكن بشرط أن يقيم الخليفة العثمانى العادل واستعرض الشـيخ رشـيد ثورة اليمن فيقول أن اليمنيين لوعوملوا بالعدل لما كانوا يثورون ، فالعرب لا يصبرون على الضيم ، فاذا ساءت معاملتهم ساءت أعمالهم ... ثم يقول « هذا وان حجة العرب فى الخلافة حجة صحيحة وفقا للحديث الصحيح « الخلافة فى قريش ، وهى حجة لم يخالفهم فيها أحد من علماء الترك .. ولا يقدر أحد أن يقول أن حديث الرسول من « الأوهام الباطلة والأسس الواهية » .

والى جانب صحيفة الفلاح التى اشرنا اليها من قبل والتى صدرت سنة ١٨٨٥ تؤيد حق السلطان عبد الحميد فى الخلافة جاء الى مصـر فى نفس العام من اسـتنبول (١٨٨٥) سليم فارس الشدياق بن أحمد فارس الشدياق صاحب (الجوائب) والذى كان اكثر داعية للسلطنة العثمانية بالعربية فى استنبول وكانت جريدة سياسية أسبوعية وكان من طائفة الموارنة ولد فى قرية صغيرة من قرى لبنان تسمى عشقوت سنة ١٨٠٥ . جاء احمد فارس الشدياق الى مصر واقام فيها من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٤ ويقول المؤرخون لحياته انه استفاد كثيرا من توجيهات الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى اخذه معه محررا فى الوقائع المصرية ثم سافر الى تونس بعد جولة فى فرنسا وانجلترا وكان قد اقام فى مالطة قبل تلك الجولة لكل من هاتين الدولتين (فرنسا وانجلترا) وذكر جرجى زيدان فى كتابه المعروف تراجم مشاهير الشرق أن باى تونس أسند اليه منصبا هاما وهناك اعتنق الديانة الاسـلامية وسمى نفسه أحمد فصارا اسمه

احمد فارس الشدياق • كذلك اشار مؤرخ الصحافة الكونت دى طرازى الى هذه الواقعة • وفى سنة ١٨٦٠ انشا جريدة الجوائب صدر أول أعدادها فى يوليو من ذلك العام •

وكان مجيىء سليم بن احمد فارس الشدياق سببه أن يزف الى المصريين نبأ وصول مختار باشا مندوب السلطان وليحدث المصريين عن المسالة المصرية فهى أعظم المسائل التى تهم المسلمين اليوم عموما حيث أن الخديوية تابعة للسلطنة وقد زادت العراقيل بينهما لسوء تدبير انجلترا ، ولضيق سرور الأهالى من مجىء المرخص العالى (يقصد المفوض العثمانى الغازى مختار باشا ولينشر خطبه واخبار مقابلاته مع اعيان المصريين لاستطلاع آرائهم • وكانت صحيفة القاهرة التى اصدرها سليم تنشر اخبار مختار باشا قبل اخبار الخديوى توفيق وتنشر خطبه بالتركية مع ترجمة لها بالعربية وقد كان واضحا انها تخاطب العناصر التركية الشـــركسية التى ثار عليها عرابى • فلما عطلت صحيفة القاهرة سنة ١٨٨٦ اعاد سليم فارس الشدياق اصدارها فى سنة ١٨٨٦ باسم القاهرة الحرة وتوسع فيها فى المقالات المحررة بالتركية وكشف فيها لرعايته للسلطان عبد الحميد وللخلافة العثمانية ثم انتقل امتياز القاهرة الحرة فى سنة ١٨٨٧ الى عارف بك المردينى الذى استكتب فيها ولى الدين يكن وعزيز زندو وأيوب عون ومحمد بك المويلحى وذلك بعد عودته عن استنبول • والمعروف أن الدولة العثمانية كانت تدفع أموالا لعدد من الأقلام الموالية لها لتدعو المصريين الى طاعة خليفة المســـلمين وكان اعتمادها كبيرا على عدد من الصحفيين الشوام •

وقد تجلى نشـــاط العرب فى مصر فى مقاومة الســـلطان عبدالحميد بتاليف جمعية عربية تحمل اسم جمعية الشورى العثمانية The Ottoman Consultative Society بعد عام ١٨٩٧ بقليل

وكان من مؤسسيها محمد رفيق المعظم ورشيد رضا وساهم فى أدائها وفاعليتها رجـال آخـــرون من العثمانيين من ترك وأرمن وجركسى .

وعندما جاء الخطيب الى مصر علم بتأسيس جمعية الشورى العثمانية والتى قال عنها رشيد رضا انها قامت لأجل جمع كلمة العثمانيين على استبدال حكومة الشورى بحكومة المستبدين ... وأن العثمانيين مادامو متفرقين شيعا ومنقطعين مللا وأمما فكلمتهم هى السفلى وكلمة الاستبداد هى العليا فتألفت الجمعية من المسلمين عربهم وتركهم والبانهم .

ويذكر الشيخ رشيد رضا فى مجلة المنار انه ازاء اشتداد ظلم الدولة واستبداد الســـلطة المطلقة فيها من أول هذا القرن الهجرى نفر المتحدون معها فى الدين واللغة والجنس نفورا أشـــد من شعور المتحدين معها فى الدين فقط كالعرب والأكراد . فانبرى بعض أهل الغيرة مـ نالترك الى تأليف جمعية سرية تسعى فى تلافى الخطر الذى ينذر دولتهم بازالة الحكم المطلق الاستبدادى المدمر للممالك والمهلك للأمم واعادة مجلس (المبعوثان) والعمل بالقانون الأساسى . ولكن الســـلطان تتبع وأعوانه أثر هذه الجمعية ففرق شملها قبل أن تبدأ بعمل ما يظهر من فساد أخلاق بعض أعضائها الذين صاروا أعوانا للاستبداد بما نالوا من الرواتب والرتب ماذهب بثقة الناس حتى من الصادقين عن سائرهم ، هذا وان هذه الجمعية لما لم تكن مؤلفة من جميع الشعوب العثمانية كانت جديرة بالأ تدرأ الخطر ولا تنال الظفر .

ويذكر رشيد رضا أن كثيرا من عقلاء العثمانيين فكروا فى وجوب السعى فى تأليف جمعية من الشعوب العثمانية كلها ومازال

هذا الفكر يتقلب فى الأطوار حتى تمخض فولد (جمعية الشورى العثمانية) ٠

تأسست جمعية الشورى العثمانية حسب قول رشيد رضا من افراد من الترك والعرب والأرمن والكرد الغرض منها اتحاد الشعوب العثمانية على اختلاف اجناسها ومللها فى السعى لجعل الحكومة العثمانية حكومة شورى وعدل ، وهذه هى الطريقة المثلى لصيانة الدولة من التمزيق بالاختلاف الذى هو ظهر الاستبداد والتفرقة الذى هو نصير الاستعباد « وكان ممن اشترك معنا فى تاليفها رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى وفى مقدمتهم الترك والجركس والأرمن ، وكان من أعضائها المؤسسين الضابط صائب بك الذى كان صاحب لصاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازى ومندوبها لجمعية الاتحاد والترقى بمصر ٠ ثم ترك خدمة المندوب العثمانى السامى ايثارا للسياسة التى تغضب السلطان عليه ومنهم الدكتور عبد الله جودت بك المشهور بأحد مؤسسى جمعية الاتحاد والترقى أول أمرة وكان هو السكرتير التركى لها ٠٠ وكاتب هذه السطور (يقصد نفسه رشيد رضا) رئيس مجلس ادارتها ٠

كان تأسيس هذه الجمعية موافقا لرأى صاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازى المندوب العثمانى السامى بمصر ٠ فيقول رشيد رضا وأنا الذى استشرته فى ذلك طلبت منه أن يمنحها رعايته ويأذن لنجله محمود باشا أن يكون الرئيس العام أو رئيس شرف لها فمدها بمساعدته وقال ان الاصلاح لا يأتى من الأعلى ومن رجال الدولة وانما يأتى من وسط الأمة ومن الطبقات الدنيا فيها وأخبرنى أن السلطان علم بوجود الجمعية وهو يرسل اليه البرقيات تترى فى السؤال عنها وعن مؤسسيها ويسميها جمعية افسادية وأنه تجاهلها

فى جوابه أولا ثم مكتب اليه بأنه لا افساد منها ثم لا ضرر منها فانها مؤلفة من بعض أهل العلم وأبناء الأسر الوجيهة المخلصة للدولة ٠

وكان للجمعية فروع خارج الدولة العثمانية وكانت وسائل دعايتها تطبع بالعربية والتركية ، وترسل منشوراتها الى الموانى التركية على البحر الأسود بواسطة المسافرين وبحارة المراكب الروسية ، ومن هنا يستلمها رسل سريون وتوزع فى أنحاء البلاد ٠ كما كانت مكاتب البريد الأجنبية التى حصلت مختلف الدول الأوربية على امتيازاتها فى أراضى الدولة من اجل مخابراتها الخاصة - بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثمانى أسلم واسطة واضمنها لايصال صحف الأحرار ورسائلهم ومناشيرهم من الخارج الى داخل المملكة حيث يستلمها الرسل السريون ويوزعونها ٠ وقد ضاق عبد الحميد ذرعا بهذه المكاتب وصمم على اخضاعها لمراقبته ولكن أمام تهديد الدول له اعتذر الباب العالى عن ذلك وتعهد بعدم العودة الى مثل ذلك ٠

صار لجمعية الشورى العثمانية وقت وصول الخطيب الى القاهرة (١٩٠٧) ثلاثة عشر فرعا فى ولايات الدولة العثمانية وفى البلاد الأجنبية وكانت تطبع المنشورات باللغتين العربية والتركية ثم أصدرت فى فبراير ١٩٠٧ جريدة باسمها الشورى العثمانية فتولت الجمعية نشر ما تريده واستغنت بذلك عن المنشورات ٠ وكان رفيق المعظم يحرر القسم العربى منها وابن عمه حقى العظم يحرر القسم التركى الذى كان ترجمة لما يكتبه رفيق العظم أو رشيد رضا أو غيره من أعضائها فى القسم العربى ٠ كما يذكر رشيد رضا أن هذه الصحيفة كانت تصدر بها بعض المقالات باللغة الفرنسية ٠

وانضم محب الدين الخطيب الى عضوية جمعية الشورى العثمانية وأحاطه رشيد رضا بمبادئها التى أعلنت على صفحات

المنار والتى دعا العثمانيين الى المسارعة بدخول الجمعية افواجا ولتعضيدها بآرائهم واموالهم • واعجب الخطيب بمبادئها وقال ان الدعوة الى الحكم النيابى ومبادىء الشورى والعمل للتخلص من الحكم الفردى كل ذلك مما نعتقد فيه الخير • فمبدأ الشورى هو مبدأ الديمقراطيات بالمضمون الذى حدده الاسلام وقيل أن طبيعة الجمعية وتكوينها كجمعية عثمانية تضم العثمانيين من مسلمين وغير مسلمين وتسعى لكى يقيم لها فروعا فى البلاد العثمانية وفى غيرها من البلاد التى يقيم فيها العثمانيون فهى جمعية غير طائفية وغير عنصرية • وانها تؤمن باتباع الأساليب المشروعة فى الوصول الى هدفها فهى لذلك جمعية علنية •

ومن المعروف أن رشيد رضا كلف محب الدين الخطيب أن يتخير لجمعية الشورى من العثمانيين الرجال الصالحين وكتب له تفويضا بذلك فقد كانت جمعية تفتح عضويتها أمام كل عثمانى عاقل محب لوطنه على أن يكون حميد السيرة واشترطت أن تحل الأرقام بدلا من الاسماء فى تعريف الأعضاء ومخاطبتهم والكتابة اليهم •

واضح من اسم الجمعية انها كانت تعمل على أن تحل الشورى محل الحكم المستبد فى الدولة العثمانية ولما لم يكن هناك ما يمنع أن يكون الفرد عضوا فى أكثر من جمعية فقد انضم الخطيب الى جمعية الشورى العثمانية فى الوقت الذى كان عضوا بجمعية النهضة العربية •

وبالرجوع الى ما كتبه الخطيب فى نوفمبر ١٩٠٨ فى أوراقه التى رجعنا اليها فى كتابنا الذى أصدرناه عن حياته ودوره فى الحركة العربية نجده يؤكد انه وجميع من استعان بهم وتعاون معهم من رجالات العرب وشبابهم لم يخطر على بالهم الانفصال عن الدولة

العثمانية لأن الاستقلال عن الدولة وهي ضعيفة مريضة أمر مكروه ولكن لعلمنا ان تمرن الشعوب على اخلاق السيادة يحتاج الى وقت فكان من مصلحة العرب فى الدول العثمانية أن تعترف لهم الدولة بلغتهم فى الادارة والتعليم فى البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية وأن لا تبلغ بها الحماقة الى حد ان يكون التعليم فى بلادهم بلغة أجنبية عنهم والى حد ان تكون لغتهم محرما عليها أن تكون لغة الادارة والقضاء فى صميم الوطن العربى · ومن العجيب أن تنكر الدولة العثمانية على عرب الحجاز والعراق وسوريا ما اعترف به الانجليز لمصر والسودان من حقها فى أن تكون لغتهما العربية لغة التعليم والتعامل فى مرافق الحكومة ومصالحها الرسمية ·

ومن المعروف أن الخطيب استطاع ان يجذب بعض ضــباط الجيش وبعض المثقفين فى اليمن للانضمام الى عضـــوية جمعية النهضة العربية التى يرأسها أو الى جمعية الشورى العثمانية التى فوضته فى ضم من يثق فيهم لعضويتها · وهكذا نجح الخطيب فى تأسيس الفرع الرابع عشر لجمعيته الشورى العثمانية فى اليمن ·

وقد ارفقنا فى بحثنا عن محب الدين الخطيب صــــورا من المكاتبات التى دارت بينه وبين رفيق العظم · ويخرج الباحث بحرص رفيق على السرية فى مكاتباته لأن جمعيته (جمعية الشـــورى العثمانية تعمل فى المحيط السياسى فهو يقول للخطيب فى رسالته منه فى ١٨ مايو ١٩٠٨ (لكن انقبض صدرى من انكم لم تخبرونى عن وصول آخر كتاب ارسلته اليكم بالعنوان الثانى الذى كتبتموه لنا وهو عنوان الدكتور الذى فى عدن مع أنى ارسلته من مدة شهر او يزيد وفيه لا يجوز اطلاع أحد غيركم عليه فالرجا ان تسالوا ذلك الدكتور عن الكتاب فقد كدرنى جدا انكم لم تخبرونى بوصوله وانى التمس منكم تاليف فرع الجمعية عندكم يرتبط بنا رأسا وفيه كلام

طويل يسيئونى أن يراه غيركم مع انى لم اكتف بكتابة العنوان وحده بل اضفت ومنه الى محب الدين الخطيب) • ونلاحظ كثرة الرموز فى الرسائل المتبادلة بين رفيق العظم ومحب الدين الخطيب مثل قول رفيق للأخ ع بك ولكل انصار الحق وفى رسالة بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٠٨ « سبق أن وقع اختياركم على الأخ الفاضل الدكتور (ح) •

وامعانا فى السرية ينبهه رفيق الى اهمية الكتمان فالداخل أو المنضم للجمعية لا ينبغى له معرفة احد من الجمعية الا من فوقه أو من تحته أى الذى ادخله والذى دخل بواسطته ثم ان لكل من يؤسس شعبه أن يكون رئيسها الا اذا تنازل عنها لغيرها ولذا فانتم الآن ١/١٤ فشعبتكم هى الشعبة ١٤ وكل داخـــل توضــع نمرته الخصوصية من فوقه وغرة شعبته من تحت • وينبه رفيق العظم الى أن عقاب من يخون الجمعية الموت والشعبة هى التى تكلف باجراء العقاب على من يخون اما بالاقتراع او بانشاء فرع لكل شعبة من الفدائيين تكلف بمثل هذه الأعمال ويشير رفيق على الخطيب أن يكثر من ادخال الفدائيين فى جمعيته ويرى ان هؤلاء عادة يكونون من الطبقة النازلة (الطبقة الدنيا) وأكثرهم على ما اعتقد يعتادون الصدق فهم أهل للثقة اكثر من البقة العالية •

وحين يسأله الخطيب ان يبيح له باســماء مؤسسى جمعية الشورى يقول له « سألتمونى عن بعض اسماء المؤسسين واذا كنا جميعا تحت سماء الحرية فلا اضن به عليكم وهو الداعى (رفيق العظم وابن عمى حقى بك والسيد رشيد رضا والسيد عبد الحميد الزهراوى وأحمد بك صائب صاحب جريدة (سنجق) والدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلة (اجتهاد) والدكتور شبلى شميل الفيلسوف المشهور وصحافى رومى وشخصان أرمنيان • لكن اشغال الجمعية وأسرارها وجريدتها وكل ما يتعلق بها قائم فى الحقيقة على

كاهلى وكاهل حقى بك فانا احرر القسم العربى من الجريدة وهو يحرر القسم التركى والمكاتبات العربية على · ويعود العظم الى تنبيهه الى السرية « أحب أن اوصيكم بالاحتياط الشديد وأن أيدى الأشرار من زبانية الحكومة تصل الى شىء من اثار الجمعية عند احد منكم لأن الحكومة فى غاية التيقظ خصوصا بجمعية الشورى العثمانية التى تحقق عندها ان ليس فيها من تبتاع ضميره فقط وقد طاردت القائمين بأعمال الجمعية فى الاستانة حتى الجأت شخصين منهم الى الفرار بانفسهما منذ ١٥ يوم الى مرسيليا واحدهما الذى كان يكاتب الجريدة من الأستانة فخسرت الجمعية بفراره ركنا كبيرا لذا نرجوكم الاحتياط الشديد اذ يهمنا جدا سلامة افراد الجمعية وبقائهم فى تركيا ومتى خرج أحدهم منها عدمته البلاد ولا تستفيد منه الجمعية فى الخارج ·

وعندما قامت حركة الاتحاد والترقى فى ١٠ يوليو ١٩٠٨ عمت الفرحة سائر الأقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام والقى المصريون قصائد شعرية فرحة بهذه المناسبة وشكرا للسلطان العثمانى الذى انعم على البلاد باعادة العمل بالدستور الذى كان قد عطل ·

قال أحمد شوقى قصيدة مطلعها :

بشـــرى البرية قاصــــــيها ودانيهـــا

حاط الخـــلافة بالدســـتور حاميهـــا

ثم يقول :

اســـــدى الينـــا أمـــير المؤمنين يدا

جلت كما جل فى الأمـــلاك مســـديها

وليس مســـتعظما فضــل ولا كرم

من صاحب السكة الكبرى ومنشـــئها

ان الندى والرضــى فيه واســـرته

والله للخـــير هـــادية وهاديهـــا

خـــلافة الله فى آحضـــان دولتهم

شـــاب الزمان وما شـــابت نواصيها

وفى نهايتها يهنىء العثمانية ويشير الى حال مصـــر والى امانى المصريين فيقول :

ياشـــعب عثمان من ترك ومن عـــرب

حيـــاك من يبعث الموتى ويحييهـــا

صـــبرت للحق حين النفس جـازعة

والله بالصـــبر عند الحق موصـــيها

ما بين آمالك اللاتى ظفـــرت بهـــا

وبين نصـــر معـــان انت تدريهـــا

وهكذا نجد شـــوقى يؤكد الروابط التى تربط مصر بالدولة العثمانية حين يقول اسدى الينا ثم انظر قوله فى آخر بيت ان مصر تحلم بدستور لها شانها الأمانى التى نالتها الدولة العثمانية ٠

وقال حافظ ابراهيم فى قصـــيدته (تحية الاخلاص) مدحا للسلطان عبد الحميد لاعلانه الدستور ومده سكة حديد الحجاز :

اللى الحجيج عليــــك والحـــــرمان

واجـــل عيد جلوســـك الثقــــــلان

أرضــــــيت ربك اذ جعلت طـــريقه

آمنـــــا وفزت بنعمــــة الراضـــــوان

وجمعت بالدســـتور حــــولك أمـــة

شـــتى المذاهب جمـــة الأضـــــغان

والحقيقة أن الأشهر الثلاثة الأولى من عودة الدستور كانت مليئة بروح الحماس والمحبة والاخوة بين طوائف الدولة العثمانية فوقف أحد الأحرار الأتراك جلال الدين عارف وكان من الذين لجأوا الى مصر فى عهد الاستبداد الحميدى يوم الاحتفال باعلان الدستور خطيبا فى مصر وقال : اننا اليوم قد تنازلنا عن كلمة ترك وهى محبوبة لنا ، فكلنا عثمانيون لا فرقة عندنا بين الترك والعرب والروم وغيرهم ٠

ولم تكن مصر فريدة فى الاحتفال بعودة الدستور انما عمت الفرحة مختلف العـــرب فى الولايات العربية وخارجها ٠ أعرب السوريون فى الارجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب عام للتبرع بسفينة حربية هدية منهم للبحرية العثمانية وشكل أهالى بيروت حرسا وطنيا لمساعدة الجيش عند اللزوم وفى العراق ابتاع طالب بك النقيب نائب البصرة الجديد من ماله الخاص مركبا تجاريا وأهداه الى الحكومة كى تستخدمه فى المحافظة على شط العرب وتطوع لاصلاح العلاقات بين الأمير مبارك الصباح ، قائمقام الكويت وبين الحكومة ٠

وكتب شبلى شميل من أعضاء جمعية الشورى العثمانية التى أشرنا اليها من قبل فى صحيفة الأهرام فى ٨ ـ ٣ ١٩٠٩ (العدد ٩٤١٦) يقول أن على الحكومة العثمانية الجديدة أن تفرض على البلاد لغة مشتركة تكون اجبارية ، واقترح أن تكون التركية بالرغم من أن اللغة العربية أغنى ماضيا وأوسع أدبا من ماضى اللغة التركية وأدبها ـ باعتبار أن هذه (اللغة التركية) تستمد آدابها من جميع اللغات فتتقبل بسهولة كل ما تجده صالحا وتتمثله بسرعة فهى بالتالى أكثر ملاءمة لشكل الحكومة الحرة الجديدة ٠

وهكذا صار العرب مع بدء العهد الجديد مستعدين حتى للتنازل عن لغتهم كلغة رسمية لتكون اللغة التركية راضين بذلك مستبشرين بالعهد الجديد ٠ وكان سليمان البستانى (مترجم الياذة هوميروس الى العربية ، ومتمم دائرة معارف بطرس البستانى ونائب بيروت ثم صار وزيرا فيما بعد) مؤيدا لهذا الاتجاه ٠ فقد جاء فى كتابه (عبرى وذكرى) : ان أعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الدينى تجنيد المسيحيين مع المسلمين ، وأعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسى تعميم اللغة الرسمية ، وجعل اللغة التركية اجبارية ، فان هاتين الوسيلتين ، مع تعميم أسباب العلم والتهذيب ، يضمنان توثيق عربى التواد والاخاء ٠

والقيت الخطب فى مدينة الاسكندرية فى احتفالات كبرى بهذه المناسبة ٠ وفى طرابلس الشام اشترك الأتراك والعرب فى اقامة صلاة شكر لله على اعلان الدستور وقد أشرنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب الاحتفالات فى الحديدة وصنعاء وغيرها بهذه المناسبة ٠ وما ان علم الخطيب أن جمعية الشورى العثمانية تفكر فى أن تكون فروعها فروعا لجمعية الاتحاد والترقى حتى رأى أن يكون فرع الجمعية فى اليمن هو البادى بذلك ٠ وعملا بمبدأ التعجيل بالأمر

الواقع أعلن الفرع الرابع عشر لجمعية الشـــورى العثمانية فى الحديدة انه أصبح فرعا لجمعية الاتحاد والترقى واتخذ له ناديا فى مكان على مرفأ الحديدة ٠

ومن المعروف أن جمعية الشعورى العثمانية رفضت قبل اعلان الدستور أن تدمج فى جمعية الاتحاد والترقى ، فيذكر رشيد رضا انه جاءه مندوب عن الاتحاد والترقى وقابله مبلغا اياه رغبة جمعية اتحاد الترقى فى دمج جمعية الشورى معها فأبى رشيد رضا هذا الطلب وقال لمندوب الاتحاد والترقى : أن تعدد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقا ولا يحدث ضعفا ٠ واننا نرى أنه لا نجاح للعثمانيين الا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور ٠

لكن نجاح حركة الاتحـــاد والترقى فى اجبار الســـــلطان عبد الحميد على العمل بالدستور أثار عواطف العرب وجعل جمعية الشورى العثمانية تسعى الى أن تكون فروعها فروعا للاتحـــاد والترقى ، ولعل هذا أيضا من باب التقرب من السلطة الجديدة التى صار الجميع يأملون فيها الخير بعد عهد الاستبداد الحميدى ٠

ولما كانت مصر من الوجهة الشرعية ولاية من ولايات الدولة العثمانية وللسلطان سيادة عليها وان كانت اسمية بحكم أن الخديوى فى مصر كان يجرى تعيينه بخط سلطانى ، ويمثل السلطان فيها موظف كبير يحمل لقب معتمد أو قوميسير عالى وآخر بلقب قاضى مصر ، فان أحداث الدولة العثمانية كانت تتردد صداها فى مصر وبين نفوس المصريين عامة ٠ فالصحف المصرية لم تكن فى العهد السابق على اعلان الدستور تظهر بمظهر اللامبالاة ازاء الأوضاع العامة فى أراضى السلطنة العثمانية ووجد الترك الهاربين من حكم الدولة العثمانية فى مصر ملجأ لهم ومأوى وأخذوا يصدرون فى مصر جرائد خاصة بهم ٠

ذكر توفيق برو فى كتابه العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى اسماء الصحف التركية التى كانت تصدر بالقاهرة منها المونيتور العثمانى بالفرنسية لليون فهمى وميزان عدالت له أيضا وشوراى عثمانى قسم فيها بالعربية لجمعية الشورى العثمانية التى كان من أعضائها حين ذكرنا من قبل رشيد رضا ورفيق العظم ، تعقيب استقلال لعبد الكريم هادى ، الخلافة والأمل لمصطفى راغب وكانت تنطق بلسان تركيا الفتاة وغيرها من الصحف الأخرى ٠

كما ذكر برو فى نفس كتابه أن الأحـــرار العثمانيين كانوا يستعينون بمآل الخديو عباس حلمى الثانى ويحاولون اشراكه فى المؤامرات لخلع السلطان وقد دفع فى احدى المرات أربعة آلاف جنيها للزعيم التركى اسماعيل كمال بك من أجل هذه الغاية وان البرنس صباح الدين جاء مرة الى مصر لنفس الغرض ٠

ويذكر أحمد شفيق فى كتابه مذكراتى فى نصف قرن ان رعاية الخديو عباس حلمى الثانى للأحرار الأتراك قد سببت نفورا بينه وبين السلطان بعد أن كانت العلاقة بينهما طيبة عندما كان يرد اللاجئين اليه ٠

وما ان أعلن الدستور حتى أقيمت احتفالات كبرى فى مصر وأقيمت احتفالات فى الحـــزب الوطنى كما أقيمت فيه احتفـالات بمناسبة مرور عام على اعلان الدستور ، أقيمت الاحتفالات فى مقره الرئيسى وفروعه فى المديريات ٠ والمعروف أن مصطفى كامل وخليفته محمد فريد كانا من أنصار الرابطة العثمانية وتقوية الروابط مع الدولة العثمانية للتخلص من الاحتلال البريطانى ٠ وعندما قامت لجنة التنظيم للجالية العثمانية باحتفال بمناســبة الذكرى الأولى لاعلان الدستور وكتبت فى راس بطاقات الدعوة الجالية العثمانية

بمصر Colonie Ottomane du Caire شنت صحيفة اللواء حملة شنيعة على تنظيمها وكتبت تقول : ياعجب كل العجب ، أفى مصر هذا البلد العثمانى وبين المصريين يعرف بعض العثمانيين ذواتهم بأنهم جالية عثمانية وبأى شكل كان أولئك المعنيون يكتبون رقاع الدعوة الى مكان الاحتفال لو كانوا يحتفلون فى لبنان أو فى اليمن مثلا ؟ واذا كانوا على ضفاف النيل نزلاء ، وفى مصر غرباء فأين يكونون أصليين ؟

كما ذهب محمد فريد الى الاســتانة ممثلا للحزب الوطنى للاشتراك فى احتفالات ذكرى الدستورى ٠

كان المصريون يحلمون أن يتخذ الحكم الجديد تأييدا لقضيتهم ضد المحتل البريطانى وان ينالوا دســتورا شأن ما حدث للدولة العثمانية ٠ واخذت الجرائد الوطنية تكثر من المقالات التى تنادى باعلان الدستور والحكم النيابى ٠ ولكن الحكم الجديد لم يشأ أن يدخل فى صراع مع انجلترا بشأن مصر بل اخذت صحيفة طنين التركية تهاجم المحمل المصرى ولم يكن قد مضى خمسة أشهر على اعلان الدستور وتدعو الى ابطال هذا المحمل لأنه على حد قولها يذكر بعهد الخلافة فى مصر ويثير الرغبة فى أن تعود اليها ٠

ولم تكن مصر هى التى خاب ظنها بالعهد الجديد بل كذلك العرب فى شتى أقاليمهم الخاضعة للدولة العثمانية ٠

وقد تناولنا فى كتابنا دراســة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ــ للقضايا التى فجرت الخلافات بين العرب والاتحاديين ٠

لقد وصف رفيق العظم شعوره فى مناسبة اعلان اعادة العمل بالدستور بقوله انه لم يكن يلقى صديقا له من العثمانيين الذين

عرفوا بالميل الى الحرية الا وغلبت على كليهما عواطف السرور فانفجرت اعينها بالدمع استبشارا لمستقبل الدولة السعيد وفرحا بالحرية التى هى رغبة النفوس الحرة ٠

بادر الكثير من الزعماء العرب الى الانضـــمام الى جمعية الاتحاد والترقى معلنين ولاءهم واخلاصهم لها كما فتحت الجمعية فروعا لها فى كثير من البلاد العربية فى دمشق وبيروت والعراق ٠

لكنه لم يكد يقضى على الثورة المضادة فى ٢ ١ابريل ١٩٠٩ والتى انتهت بعزل السلطان عبد الحميد الثانى وتوليه اخيه محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس ، حتى تنكر الاتحاديون لجمعية الأخاء العربى العثمانى واصدروا قرارا بحلها ولم يكـ نقد مضى عليها ثمانية شهور ٠

وجاءت رسائل لمحب الدين من صديقه رفيق العظم يقول له فيها اخبار الدولة تسوء كل محب لها ومع ذلك فرجاؤنا جميعا ان لا تكون حرب بينها وبين الأعداء ٠

وفى رســـالة اخرى يبلغه بحادثة دمشق التى حدثت بشان الاعتداء على رشيد رضا (وقد عاد الاثنان رفيق العظم ورشيد الى سوريا بعد اعلان الدستور) اثناء زيارته دمشق حيث اعتدى عليه فى المسجد الأموى ٠ وقد افاض الشيخ رشيد رضا فى وصف هذه الحادثة وعللها بانها كانت مدبرة من الاتحاديين لأســـباب تتعلق بانتخابات المبعوثان (مجلس النواب العثمانى) وان الحكومة بدات تتدخل فى الانتخابات لذا فنفس وجهاء البلدة من جمعية الاتحاد والترقى ٠

كما عاد الخطيب الى سوريا وراى ان بعض السوريين الأحرار الذين كانوا يقيمون فى مصر فرارا من السلطان عبد الحميد قد

عادوا الى بلدهم استبشارا بأن ينعموا فى ظل الحكم الجديد بما حرموا منه فى عهد هذا السلطان • عاد محمد كردعلى الى دمشق ليصدر صحيفة المقتبس اليومية وكان يصدرها من قبل فى القاهرة اثناء اقامته بها •

وصـــل محب الدين الخطيب فرأى أن الدولة تأبى الاعتراف بجمعية النهضة العربية لأن كلمة العربية غير مرغوب فيها من رجال الاتحاد والترقى الذين آل اليهم أمر السلطنة •

وكما كانت مصر موئلا للأحرار العرب الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد الثانى ، كانت كذلك مقرا لأولئك الذين صدمهم العهد الجديد وسياسة الاتحاديين فى الحكم •

وتطورت الأمور فى ظل حكم الاتحاد والترقى تطورا سيئا لا فى البلاد العربية فحسب بل فى البلاد التركية أيضا وفى الاســتانة ذاتها • وصار تعصب الاتحاد والترقى للتركية وللنعرة الطورانية مثارا لرد الفعل وانتعاش الرجعية فى عاصـــمة الدولة والولايات التركية فضلا عن الولايات العربية •

فالخطيب الذى دعاه صديقه كردعلى ليعمل معه فى المقتبس تطارده السلطات فيترك دمشـــق الى بيروت وعندما يحس بمن يلاحقونه من السلطات ينتهى به الأمر بالسفر الى القاهرة بعد زيارة له قصيرة للاستانة أبحر منها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٩ الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة • وفى أسبوع وصوله الى القاهرة تكلم الشيخ طاهر الجزائرى مع أحمد باشا تيمور (وكان لايزال أحمد بك تيمور فى أن يلتحق بقلم تحرير المؤيد •

وفى فترة قصيرة من التحاقه بالمؤيد أصبح موضع ثقة الشيخ على يوسف وفى سنة ١٩١١ اشترك مع رشيد رضا الذى عاد هو الآخر فى فتح مكتبة باسم مكتبة المنار •

وكما كان الأحرار العرب يعملون من مصر ضد اســتبداد السلطان عبد الحميد عملوا منها للتصدى للاتحاديين وسياستهم التى جعلت بعض المؤرخين يؤرخ للحركة العربية بانها دخلت فى طور جديد من عام ١٩١٢ حيث بدأت الحركة العربية يتخذ لها موقفا متميزا بل ومعاديا للدولة العثمانية وللاتحاد والترقى • ولقد ساهمت سياسة الاتحاديين فى الوصــــول الى هذا الموقف الى حد كبير فسياستهم التى كانت ترمى الى عثمنة الولايات التابعة للدولة أو أممية الامبراطورية العثمانية كانت تعنى من الناحية العملية تفوق الأتراك على حساب القوميات الأخرى التى طلب اليها أن تذوب فى الدولة العثمانية ثم بدأ الموقف عدائيا صريحا حين تطورت حركة الجامعة العثمانية الى حركة الطورانية وهى دعوة صريحة وعنيفة الى تفوق الجنس التركى وطمس معالم المقومات العربية الأساسية كذلك كان الفشل الدولة العثمانية فى الدفاع على طرابلس الغرب أن أحس العرب بضرورة ابراز كيانهم الخاص المتميز ، ومن ثم ظهرت فكرة اللامركزية كأول تعبير عن ذلك الاتجاه المستقل للحركة العربية •

وتبع انتهاء الحرب الطرابلسية والصلح الذى عقد بين الدولة العثمانية وايطاليا فى اكتوبر ١٩١٢ وســـحب كل من الحكومة الايطالية ضـــباطهما وجيوشـــهما وموظفيهما الملكيين الأولى من طرابلس الغرب وبرقة والثانية من الجزر التى احتلتها فى بحر ايجه ضد ايطاليا ــ تبع ذلك منشورا من السلطان الى أهالى طرابلس وبرقة يمنحهم فيها استقلالا داخليا • وكان لهذا الصلح أثره السيىء على العرب فقد كان عمل الحكومة العثمانية بمثابة تسلم العرب لأعدائهم وأحس العرب أن سياسة الاتحاديين فى الحكم القائمة على تمكسهم بالمركزية كانت السبب الرئيسى فى ضياع الاقليم •

وما ان انتهت الحرب الطرابلسية حتى نشبت الحرب البلقانية وأذعنت الدولة العثمانية بطلب الصلح بعد الهزيمة التى حاقت بها ونصحت الدول الأوربية (انجلترا ، فرنسا ، روسيا ، المانيا ، ايطاليا، النمسا) الدولة العثمانية التنازل عن مدينة أدرنة للدول البلقانية وأن تظل للدول العظمى أمر البت فى مصير بحر ايجه .

وفى هذه الظروف رأت فرنسا أن تعيد على مسامع الدولة العثمانية قصة نفوذها فى سـوريا وما تدعيه من حقوق تاريخية وحمايتها لبعض العناصر المسيحية وسارع رئيس وزراء فرنسـا ووزير خارجيتها بوانكاريه الى ارسـال المدرعة جـول فيرى Jules Ferry الى سرقاً جونيه فى لبنان .

وخطب فى مجلس الشيوخ الفرنسى قائلا لا أرى لزوما لأن اذكر مجلس الشيوخ بأن لنا فى لبنان وسـوريا حقوقا تاريخية تقليدية .

وكان أحد الدوافع الهامة وراء اصدار بوانكاريه لتصريحه هو ما تراءى لعينيه من انهيار الدولة العثمانية وتفاهمه مع انجلترا على اعترافها بمصالح فرنسا فى سوريا وخوفه من أن تكون هناك دول أخرى طامعة فيها . وقد تأكد ذلك باصدار جمعية الدراسات لشئون البحرية والمستعمرات فى باريس بتاريخ ٢٠ ـ ١١ ـ ١٩١٢ قرارا جاء فيه أن المجلس وقد أخذ بعين الاعتبار وجوب تأكيد مبدأ تنزه الدول الكبرى عن التوسع الأرضى ، فيما يتعلق بتركيا الآسيوية وفقا للتصريحات الأخيرة التى ادلى بها وزيرا خارجية فرنسـا وانجلترا وباعتبار أن بعض المطامع المصرية التى وضعت سوريا نصب عينها قد تشكل خطرا على سلامة اراضى تركيا الآسيوية ونظرا للحقوق الخاصة المعترف لفرنسا بها ، يحتج على هذه المطامع.

ويعرب عن ثقته برغبة الحكومة فى الدفاع عن نفوذها ومصالحنا التى عملت فرنسا على تكوينها ويتقدم بهذا الطلب ·

فى حالة احتمال زوال ارتباط سوريا بالدولة العثمانية تؤكد الحكومة الفرنسية رغبتها بعدم السماح لأى سيادة أو حماية ، عدا سيادة وحماية فرنسا أن تحل فى هذه المنطقة محل السيادة العثمانية ·

ولم تكن فرنسا هى الدولة الأوربية الوحيدة التى اشيع انها تتجه بأقطارها الى سوريا فانتشرت اشاعات عن اتجاه انظار انجلترا الى العراق والسواحل العربية وطمع المانيا فى التسرب الى قلب الاناضول فالعراق وتطلع روسيا الى مد سيطرتها على شمال الأناضول ·

كان لابد ان يسود القلق احرار العرب ازاء المصير الذى صارت تواجهه الدولة العثمانية · عندئذ بادر السوريون فى القاهرة الى أنشاء حزب اللامركزية ·

يقول رشيد رضا ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا وكان سبب تأسيسه ·· هو ما انذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ، وقد كنا نعتقد أن الدولة لا يمكن ان تعيش طويلا اذا اصرت على شل حكومتها المركزية وتحكيم الترك فى جميع شعوب الدولة ·

ويعتبر ايلى خدورى أن حزب اللامركزية هو اهم الأحزاب المدنية التى الفها فى القاهرة المهاجرون السوريون وكان ـ كما يقول خدورى ـ له اتصالات واعضاء فى سوريا ·

وكان الهدف من تأسيسه أن يعمل ما وسعه الجهد فى الدفاع عن الدولة باقامة اللامركزية · ولم يكن هناك مايدعى لسرية تشكيله فقد تشكل فى القاهرة بعيداً عن أيدى السلطات التركية ·

أما المؤسسون له فهم رفيق بك العظم ، الشيخ رشيد رضا ، الدكتور شبلى شميل ، اسكندر عمون ، سامى جريدينى ، حقى العظم ، محب الدين الخطيب وغيرهم ·

وقد أطلعت على وثائق هذا الحــــزب المحفوظة لدى المرحوم محب الدين الخطيب · عقدت جلسة خاصة للمؤسسين لاختيار مجلس ادارته · وقد ضمت أوراق الخطيب دعوة موجهة اليه من رفيق العظم بتاريخ ١٢ يناير ١٩١٣ لاختيار مجلس أدارة الحزب ·

وقد تم فى هذا الاجتماع اختيار رفيق العظم رئيسا واسكندر عمون نائبا للرئيس وحقى العظم سكرتيرا ومحب الدين الخطيب مساعداً للسكرتير أما أعضاؤه التنفيذيون فهم رشيد رضا وسليم عز الدين ونعمان أبو شعر واختير للجنة المالية من الأعضاء خليل أبو أيوب وعزت الجندى وداود أبو بركات رئيس تحرير الأهــرام ونجيب بشرى ·

وعهد الى محب الدين الخطيب بطبع القانون الداخلى للحزب فى مطبعة المنار وأذاع الحزب عقب تشكيله بيانا قال فيه : ان أفضل أشكال الحكومات هو الدستورى ، وأفضل أشكال الحكم الدستورى هو اللامركزى خصوصا فى الممالك التى تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات · واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الأحوال ولم ينظر معه فى الحاجة والزمان والمكان · وأوضح البيان أهمية اللامركزية فى انها

افضل مرب لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتى الذى هو خير وسيلة لترقى الأمم لأن اللامركزية لا تجعل السـلطة فى يد أفراد قلائل فيكونون كالمحرك فى آلة كبيرة اذا أصابه عطب أو ضعف تعطلت اجزاء مسائر الآلة عن عمل • فاللامركزية توزع التبعة على افراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن ويسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الاتكالية حياة الاعتمـاد على غير النفس ، وتفسح امام كل فرد مجال العمل الواسع فى جهاد الحياة ، وعهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقى والعمران من أقرب سبيل وفى وقت قصير •

وعند الأستاذ الخطيب مكاتبات عديدة يطلب أصحابها الانضمام الى الحزب من السوريين المغتربين فى أمريكا اللاتينية والشمالية ومن اشخاص سوريين فى جهات متفرقة وكانت الصيغة التى يقدمها العضو لطلب الانضمام الى الحزب على النحو التالى :

لمقام رئاسة حزب اللامركزية

بصفتى سـورى عثمانى أتقدم عن غيرة ووطنية صـادقة الانضمام الى حزبكم العامل على ترقية الوطن بتخليصه أياه من التقاليد الادارية القديمة المضيقة ، وانى حائز لكل الشروط التى يوجبها القانون الداخلى للحزب كما وانى مستعد للقيام بما يفرض على من الخدمات والمساعدات العائدة على توسيع نطاق سـلطة الحزب وانتشاره لذا ترون انى فى انتظار تعليماتكم •

وظل الحزب يتسع ويمتد وينتشر ويزيد أعضـاؤه • وفتح الخطيب صفحات المؤيد لنشر أخبار الحزب ودوره وأهدافه • وفى أوراقه مكاتبات جاءت اليه من حقى العظم سكرتير الحزب لنشـر أخبار عن الحزب ورأيه فى الموضوعات المختلفة مثال ذلك أن حقى

العظم ارسل له فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٣ رسالة جاءته من بغداد عن الاصلاح ويلتمس ترجمتها من التركية الى العربية ونشرها فى المؤيد ولا يضع توقيعا ويقول فى مقدمة ما ينشره أرسل طلاب الاصلاح فى مدينة كذا ..

وكان من الطبيعى أن يخشى أعضاء الحزب على أنفسهم من تصدى السلطات العثمانية لنشاطهم وارسال من يقوم ضدهم بعمليات اغتيال .

فقد جاءت لمحب الدين الخطيب رسالة من حقى العظم بتاريخ ٢١ يونيو ١٩١٤ يخبره فيها أن مدير بوليس الاستانة والذى رتب مكيدة اغتيال فى باريس موجود الآن فى القاهرة بصورة خفية جدا وغير اسمه وانه يتنقل كل يوم من فندق الى آخر لاخفاء أثره .. ولا يعلم أحد بوجوده فيها! وتساءل حقى لماذا هذا التخفى وهذا التكتم ؟ أليس لأن الرجل نوى أن يرتب مكيدة أخرى هنا ؟ وهذه المكيدة لا تكون الا ضد احدنا نحن اللامركزيين لأن المعارضين الأتراك لا يشتغلون الآن بالسياسة ولا قدرة لهم على الاشتغال بها فالايقاع بهم لا فائدة منه بل يضر الاتحاديين ، اذن المكيدة هى ضدنا ولا ريب . وقد أخبرنا الحكومة وسحبنا تلغراف الى الوكالة البريطانية أمس وبلغنا المحافظة أيضا اليوم وستكتب الجرائد .

واحتفظ الخطيب بمحاضر مجالس ادارة الحزب فقد كان هو الذى يتولى تدوينها ولديه مئات الوثائق عن هذا الحزب ومكاتباته وقراراته . أخذ أعضاء الحزب على عاتقهم الدفاع عن مبادئه ونشر بياناته والطعن فى مبدأ مركزية الحكم الذى اتخذه الاتحاديون خطة لهم والاشادة ببرنامج الحزب .

نصت مادتاه الأولى والثانية أن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية وكل ولاية من ولاياتهـــا على أســـاس اللامركزية الادارية والسلطان هو الذى يعين الوالى وقاضى القضاه وهذان يقومان كل فى حدود دائرته بتعيين سائر موظفى الولاية ، بعد اختيار مجلس الادارة لهم ، ولا يجوز عزل موظف الا بحكم من مجلس تأديب ٠

وقضت مادتاه الرابعة والخامسة على أن يكون فى مركز كل ولاية مجلس عمومى ومجلس ادارة ومجلس معارف ومجلس أوقاف وتكون جميع قرارات المجلس العمومى نافذة وأعطيت للمجـــالس العمومية للولايات المراقبة على حكومتها والنظر فى جميع شئون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الدولة وأمور الأمن العام والمعارف والنافعة والأوقاف البلدية وتقرير ما يراه فيها وسن النطاقات لها ٠ وأما ما كان من أمور النافعة يتعلق من بعض الوجوه بالأمور العسكرية أو السياسية الخارجية ، تسكك الحديد فيرفعه بعد ابداء رأيه فيه الى العاصمة ٠

وتضـــمن برنامج الحزب أن يعهد الى مجلس ادارة الولاية بوضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها (مادة ٧) ٠

وأن يتولى مجلس معارف الولاية أمور التعليم فيها وميزانيته (مادة ٨ ، ٩) ثم نظم البرنامج بعد ذلك كيفية تشـــكيل مجالس الولاية فقرر أن تكون بالانتخاب الا مجلس الادارة فان نصـــف أعضائه ينتخبهم الشعب والنصف الآخر يكونون من رؤساء المصالح المحلية ونص على أن يكون فى كل ولاية لغتان اللغة التركية واللغة المحلية ويجب تعميم التعليم فى كل ولاية بلغة أهلها وأن يؤدى أبناء الولاية الخدمة العسكرية فى ولايتهم فى زمن السلم ، أما زمن الحرب فيترك ذلك الى نظارة الحربية فى الاستانة ٠

واخذ محب الدين الخطيب ومعه رشيد رضا ينشـــران فى صحيفة المنار الطعن فى مبدأ مركزية الحكم الذى اتخذه الاتحاديون سبيلا الى الحكم تحت شعار (توسيع المأمونية) أى توسيع سـلطة الولاة وكانوا بذلك كما قال رشيد يوسـعون سلطة الاسـتبداد لأنها عبارة عن اذن المركز العام للولاة وغيرهم من الحكام الاداريين بأن يتصرفوا فى بعض الأمور ، بدون اذن من وزارة الداخلية فهى تستلزم قلة المسئولية واتاحة الجرأة على الاستبداد وتوسيع السلطة الشخصية ٠

ويلاحظ الدارسون لبرنامج الحزب مثل توفيق برو فى كتابه عن العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى أن هناك انطباقا يكاد يكون تاما مع آراء البرنس صباح الدين وتماثل شبيه بينه وبين برنامج حزب الحرية والائتلاف الذى تأسس فى نوفمبر ١٩١١ ٠

ويؤكد صحة هذا القول اننى وجدت رسالة من رفيق العظم الى محب الدين الخطيب فى ١٩ اكتوبر ١٩٠٨ عندما كان الخطيب بالحديدة يبدى له رفيق تخوفه من جماعة الاتحاد والترقى بينما يبدى له ارتياحه من مسلك صباح الدين ٠

لكن حزب اللامركزية يزيد على حزب الحرية والائتلاف وهو الحزب المعارض لحزب الاتحاد والترقى ـ بكون هذا الحزب الذى تأسس فى القاهرة اكثر وضوحاً فى تحديد حقوق العناصر وفى اعطائه صلاحيات واسعة للمجالس المحلية فى ادارة شئون الولاية واعطاء مجلس الادارة حق انتقاء جميع موظفى الولاية عدا الوالى وقاضى القضاة ٠

يقول الدكتور محمد انيس فى كتابه الدولة العثمانية والشرق العربى أنه قد حدثت محاولات قبل الحرب العالمية الأولى لتجميع

القوى المبعثرة (للعرب) ممثلة فى الجمعيات المختلفة باتجاهاتها المتباينة • وكان من ابرز واوضح امثلة هذا التجمع انشاء جمعية او حزب اللامركزية فى القاهرة فى اواخر عام ١٩١٢ وهو الحزب الذى ذابت فيه الكثير من هذه الجمعيات العـــربية • وكان هدف الحزب كما يتضح من اسمه اقامة نظام لامركزى فى حكم الولايات العربية داخل اطار الدولة العثمانية وتعبئة الرأى العـــام العربى لتاييد هذا المطلب ، وكان على راس هذا الحزب مجلس ادارة مكون من عشرين عضو يخضع لهيئة تنفيذية من ستة أعضـــاء وتمكنت الجمعية من انشاء فروع لها فى معظم المدن السورية والعراقية حتى اصـــبحت من اكبر التنظيمات المتحدثة باسم العرب ومطالبهم • اما سبب اختيارهم القاهرة كمركز لها فلأن مصـــر رغم تبعيتها الرسمية للدولة العثمانية كانت خاضعة من الناحية الفعلية لسلطة الاحتلال البريطانى وبذلك لم يكن من السهل على السلطنة العثمانية أن تمد يدها الى نشاط هذا الحزب المعادى • كما ان العلاقات السيئة بين الدولة العثمانية وانجلترا فى هذه المرحلة ترحب بهذا النشاط المعادى للدولة العثمانية •

كانت انجلترا قد ســـاءها تغلغل النفوذ الالمانى فى الدولة العثمانية فاذا كانت روسيا أقوى منافس لبريطانيا فى الخليج فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر فقد أصبحت المانيا ذلك المنافس الخطير فى السنوات الأولى من القرن العشرين • واذا كان وصول المانيا الى تركيا الآسيوية والخليج ظاهره نشاط اقتصادى لبناء خط حديدى عبر الأناضول الى الخليج ، الا أنه كان من الواضح الاطماع السياسية وراء ذلك النشاط • واذا كان النشاط الألمانى من قبل ينحصر حتى سنة ١٨٧٠ فى نشاط بعثات دينية بروتستانية فى الشام مع جانب بسيط من التجارة دون أى نفوذ سياسى أو اقتصادى

فانه بانتصار المانيا فى عام ١٨٧١ اكسبها مركزا كبيرا فى نظر الأتراك الذين كان من دأبهم احــترام القوة · وكانت الخطوات التى خطتها بريطانيا للانفراد بالنفوذ بالخليج من شـــأنه اثارة السلطان واعتباره اعتداء على نفوذه فى سواحل الخليج· وقد وضح تغير موقف السلطان عبد الحميد الثانى من بريطانيا بعد احتلالها لمصر الذى اعتبره اعتداء صارخا على ممتلكاته والتى بدأ يواجه هذا النشـــاط البريطانى وغـيره من الدول الأوربية بتدعيم فكرة الجامعة الاسلامية · واستعان بالألمان فى تنظيم جيشه على يد القائد الالمانى جولتز Goltz · ورحبت الدولة العثمانية بالصداقة الالمانية بعد مؤتمر برلين وقد صارت فى أزمة اقتصادية وفى حاجة الى اعادة تنظيم جيشها فوجدت ترحيبا بذلك من المانيا وفى الوقت الذى احجمت الـــكثير من البيوت المالية البريطـــانية عن تمويل المشروعات الاصلاحية فى الدولة العثمانية ، بادرت المانيا الى التغلغل الاقتصادى فى الدولة العثمانية ووجدت فى هذه الدولة ســـوقا لتصريف منتجاتها · وكان من أبرز هذه الأنشطة مشروع ســـكة حديد بغداد ، بل أن بعض المؤرخين يرى انه ضمن الأسباب لتوقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ هو التفرغ لمواجهة الخطر الالمانى · وكانت المانيا قد نظرت الى الكويت باعتبـــاره النهاية الملائمة للخط الحديدى واوصت بعثات المسح الالمانى باتخاذ الكويت نهاية للخط المقترح وكان ذلك من أسباب اسراع بريطانيا الى الاتفاق مع الشيخ مبارك على عدم الاتفاق مع أى دولة اخرى غير بريطانيا قبل الحصول على موافقة المقيم البريطانى فى الخليج ·

وحاول السلطان عبد الحميد بضغط من المانيا ان يرغم الشـــيخ على الاعتراف بتبعيته الى الدولة العثمانية بارسال حملة الى الكويت ولكن الحكومة البريطانية قابلت هذا العمل بارسال مدرعة حربية ووجهت الى الباب العالى انذارا بأن نفوذه قد زال من هذه المنطقة ·

وعندما طلبت المانيا من الشيخ مبارك أن يعطيها مركزا فى الكاظمة على رأس خليج الكويت ، رفض الشيخ مبارك أن يعطيها له نظرا لتوقيعه اتفاقية ١٨٩٩ مع الحكومة البريطانية ثم استقر رأى بريطانيا آخر الأمر أن تحول بين تنفيذ الخط الحديدى من بغداد الى الخليج الا اذا كان ذلك تحت سيطرتها وهو الأمر الذى انتهى أخيرا بمشروع اتفاق مع بريطانيا فى ١٧ يوليو ١٩١٤ كان أهم ما تضمنه اعلان شركة خط حديد بغداد عن عدم مد الخط الحديدى من البصرة الى الخليج وأن لا تأخذ المانيا ميناء أو محطة لسكة حديد فى الخليج دون موافقة الحكومة البريطانية ٠

واذا كان النفوذ الالمانى قد بدأ يتغلغل على هذا النحو فى عهد السلطان عبد الحميد فانه قد زاد بدرجة كبيرة على عهد الاتحاديين ٠ وكان ذلك من شأنه اغضاب بريطانيا واحتضانها للحركة العربية وتشجيعها للداعين الى حزب اللامركزية على الأرض المصرية ٠

ولقد لعب هذا الحزب دورا رئيسيا فى عقد المؤتمر العـــربى الأول فى باريس ٠ وقد سبق أن أشرنا الى مطامع فرنسا فى سوريا وتصريحات بونكاريه رئيس وزرائها ووزير خارجيتها حول ذلك بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب البلقانية ٠ ومن المعروف أن فرنسا سعت بعد اتفاقها الودى مع انجلترا سنة ١٩٠٤ الى ذلك الاتفاق الروسى البريطانى سنة ١٩٠٧ والذى نظرت اليه المانيا على أنه احكام لحلقة تطوقه بها المانيا ٠ وأصبحت أوربا منقسمة الى كتلتين على النحو الذى دخلت به أوربا الحرب العالمية الأولى ٠ ومن هنا كانت باريس شأنها شأن القاهرة مقرا للنشاط العربى المعادى للدولة العثمانية ٠ وجاءت فكرة المؤتمر العربى الأول على يد خمسة من الشـــباب العربى فى باريس هم عبد الغنى العـــريسى ، محمد المحمصانى ، توفيق فايد ، جميل مردم ، عونى عبد الهادى وجميعهم

من أعضاء الجمعية العربية الفتاة فضـموا بعض الشـخصيات العربية المعروفة فى باريس مثل شكرى غانم وندرة مطران ، واتصلوا بغيرهم من أبناء الجالية العربية فيها فوجدوا منهم اسـتجابة واستحسانا للفكرة وسرعان ما جرى انتخاب لجنة من هذه الجالية العـربية للاعداد للمؤتمر وكان أول ما أقدمت عليه لجنة اعداد المؤتمر التى عهدت بأمانة سرها الى عبد الغنى العريسى أن ترتبط بحزب اللامركزية فى مصر • وقد اشرنا الى تفاصيل هذا المؤتمر ووثائقه فى كتابنا عن محب الدين الخطيب فقد وجدت فى أوراقه سجلا لأعمال هذا المؤتمر واصـدر كتابا باسـم المؤتمر العربى الأول •

والمعروف أن فرنسا رحبت بعقد هذا المؤتمر على أرضـها وعندما سئل عبد الحميد الزاهراوى رئيس المؤتمر عن سبب عقد المؤتمر فى فرنسا اجاب على هذا السؤال الذى وجهه له مراسل جريدة الطان Temps الفرنسية بقوله ان حوادث بيروت الأخيرة (مشيرا الى ما حدث فى بيروت من جانب السلطات التركية بتصـديها للاضـطراب الذى عم المدينة اثر حل جمعية بيروت الاصلاحية) قد برهنت على قدر الحرية التى يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد فى سوريا ولأن المؤتمرين يودون اسماع مطالبهم وافهام رأيهم لأوربا التى تزداد اهمية مصالحها فى البلاد العثمانية يوما بعد يوم •

أعطت فرنسا المؤتمرين قاعة الجمعية الجغرافية بباريس لعقد مؤتمرهم وحضر عدد من المسئولين الفرنسيين جلسات المؤتمر •

وبعد أن ختم المؤتمر جلساته توجه وفد برئاسة عبد الحميد الزهراوى الى وزارة الخارجية الفرنسية فى ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩١٣

وصدرت الصحف الفرنسية مشيرة الى مقابلة بيشون وزير خارجية فرنسا للوفد وبعد أن شكره الزهراوى على ما لقيه المؤتمر من ترحيب الأمة الفرنسية قال : اذا كنا نستحق هذا الاكرام بصفتنا ابناء دولة صديقة لفرنسا من قديم الزمان ، فاننا نستحقه أيضا بصفتنا سكان بلاد مازالت فرنسا تظهر نحوها كل انعطاف وتودد واننا اعتمادا على هذا وذلك نعتقد أن فرنسا وكل أوربا تمد لنا يد المعونة فى تحقيق الاصلاح الذى وعدتنا دولتنا العثمانية باجرائه ٠ وان الاتحاد والأخاء المستحكمين بين المسـلمين والمسـيحيين من جهة وبين السوريين واللبنانيين من جهة أخرى هى أعظم برهان على ارتقائنتا وكفاءتنا لادارة أعمالنا على استعانتنا بتجارب أوربا ، واستظلالنا بظلال الراية العثمانية ٠ لهذا نحن واثقون أن أوربا لابد أن تكون صاغية بارتياح الى مطالبنا الاصلاحية النافعة ٠

ورد بيشون بكلمة شكر فيها الوفد وأكد أن فرنسا تحب الخير للسوريين وأن فرنسا ستظل مدافعة على حقوق سوريا لدى أوربا وأنها تفعل ذلك خدمة للدولة العثمانية لا ضدها ٠

كان واضحا أن فرنسا تريد أن تحتضن هذه الحركة العربية على أرضها لا حبا فى هذه الحركة ولكن خدمة لمصالحها وأهدافها ٠ يقول الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه نشوء الفكرة القومية أن الحكومة التركية نشـرت بعض الوثائق التى جاء فيها أن وزير خارجية فرنسا كتب الى قناصله يقول أن الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ، ولذلك يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها لكى تكسبوا قلوب الأهلين ، على أن تسعوا فى الخفاء للقضاء عليها ، وأن سبب ذلك كان ايضاح منظمى المؤتمر له أن السوريين ، مع احترامهم لفرنسا لا يرضون أن يكون الفرنسيون رؤساء عليهم بل جل ما هنالك أنهم يطلبون معاونتهم فى اصلاح أحوالهم بشرط أن

بيقوا عثمانيين اذ ليس صحيحا أن السوريين يفتحون صـــدورهم لفرنســـا .

وهذا هو الذى يجعلنا دائما نؤكد أن فكرة الاستقلال التام عن الدولة العثمانية لم تراود رواد الحركة العربية حتى قيام الحرب العالمية الأولى وكل ما كانوا يطمعون فيه الاصلاح اللامركزى وهذا لا يمنع من شك الدولة العثمانية فى أن عقد المؤتمر فى فرنسا كان تواطئا بين العرب والفرنسيين . قال جمال باشا فى مذكراته وبهذه الطريقة وتحت الرعاية الفرنسية شكل المؤتمر دستوره واستقر فى الاذهان وقتئذ أن تداخل فرنسا فى سوريا أصبح قريبا .

يقول الأستاذ توفيق برو فى كتابه العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى أن الذى يمعن النظر فى هذه المسألة يجد أن العرب كانوا مضـــطرين الى أن يخطو هذه الخطوة وقد بســـط الزهراوى تعذر عقد هذا المؤتمر فى الأراضى العثمانية بعد حوادث بيروت وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه بقوله : ثم ارادوا عقد مؤتمر من العـــرب بالرغم من رفض الحكومة ولكن لما توقعوا أن تحول الحكومة هذه المرة بينهم وبين رغبتهم وتتخذ الاجـــراءات القانونية ضد زعمائهم ، قرروا ، بعد موافقة ـ أو بالأحرى بعد اغراء الحكومة الفرنسية ـ أن يجتمع المؤتمر فى باريس . فاذا علمنا أن الاستانة وبيروت كانتا ترزخان تحت الأحكام العرفية .. لم يكن أمام منظمى المؤتمر والحالة هذه أن يعقدوه اما فى مصر أو فى احدى البلدان الأوربية . كان من الأفضل لهم لو عقدوه فى القاهرة ولكن الحجة التى كان سيتزرع بها الترك هى نفس الحجة لمحاربته اذا انهم كانوا فى تلك الحالة ســـيقولون أن انجلترا هى الدافعة لعقده وأن سوريا تريد أن تنضم لمصر . ذلك انهم كانوا منذ السنة الثانية للثورة (ثورة الاتحاد والترقى ١٩٠٨) يتهمون السوريين

بذلك ويقولون بأن مصر فتحت صدرها لعزت باشا العابد الذى اشترى هو والخديو معظم أسهم جريدة المؤيد وجنداه لمحاربة الدولة العثمانية ، وأن عزت باشا يقيم فى قصر الدوبارة ويعمل على انتزاع سوريا من حكم الترك والسير بها الى الاستقلال أو الالحاق بمصر وأن صلاته قد توثقت بالخديو وما الى ذلك من التلفيقات التى انبرت المؤيد والزعماء العرب الى نفيها · ومما يدل على خوف الترك من علاقة السوريين بمصر انهم اعتبروا حزب اللامركزية خائن للوطن وجعلوا الانتساب اليه فيما بعد ، من التهم الرئيسية لارسال رجالات العرب الى المشانق · وكانت الوصمة التى ألحقوها بحزب اللامركزية قائمة على علاقته بالحكومة المصرية والعمل بفصل سـوريا عن الدولة · وقد أوضح الزهراوى سبب عقد المؤتمر فى باريس أن فيها اكبر جالية عربية ولكننا نتفق مع الأستاذ بروفى أن الهدف من عقده فى باريس كان الاستظهار بالدول الأوربية كى تضغط على الدولة العثمانية فى تحقيق الاصلاحات التى ينشدها العرب · والدليل على ذلك عندما سأل أحد من الحاضرين عن القصد من ابلاغ قرارات المؤتمر للدول أجاب ندرة مطران « ان الأرمن يبلغون دائما مطالبهم الى الدول المتحابة مع الدولة والمقصود من ذلك اسـتمداد كلمة خير منهم للحكومة العثمانية فى اعطائنا الاصـلاحات ثم عقب الزهراوى على ذلك بقوله وأنا أزيد على ذلك أن بيننا وبين الدول ارتباطا هو أعظم مما نتصوره ، ونحن اذا أطلعنا الدول العظمى على ما يطلبه جزء عظيم من سكان المملكة يكون ذلك خيرا من عدم اطلاعنا اياها عليه ، فصدق الحاضرون على ذلك ·

أما موقف حزب اللامركزية بين مؤتمر باريس وما أسفر عنه من قرارات فقد أشرنا الى ذلك فى حديثنا عن الوثائق التى احتفظ بها المرحوم الخطيب عن هذا الحزب · تبع انعقاد مؤتمر باريس مفاوضة

الاتحاديين لأعضاء المؤتمر وصدور الارادة السلطانية بالاصلاحات التى جاءت اقل من الشروط المتفق عليها فى المؤتمر ۰ ازاء ذلك لم يسع حزب اللامركزية السكوت فاصدر بيانا الى الشعب العربى فى ۹ اكتوبر ۱۹۱۲ شرح فيه حاجة الأمة الى اللامركزية وعدد فوائدها ۰۰۰ وبين كيف أن الحزب رضى بشروط اتفاقية باريس مع كونها دون برنامج الحزب ثم كيف صدرت الارادة السنية وهى أيضـــا اقل من الشروط المتفق عليها بل كانت صورة مشوهة عنها ۰ وفى ٤ يناير ۱۹۱٤ صدرت الارادة السنية بتعيين الزهراوى وســـتة آخرين من العرب فى مجلس الأعيان ولعل اهم ما قام به بعض رجال الحزب فى هذه الفترة هو محاولة رأب الصدع الذى احاط به ازاء هذا الأمر ۰

عقد الحزب جلسة فى ۲۲ يناير ۱۹۱٤ وانقسم الرأى ما بين مؤيد لتعيين الزهراوى وصحبه فى مجلس الأعيان وما بين معارض على أســـاس اعتبار ذلك رشوة من الحكومة العثمانية حتى يكف العرب عن دعاوى الاصلاح وقرأ رشيد رضا رســـالة جاءته من الزهراوى انه لم يقبل هذا المنصب الا بقصد الاصرار على المطالبة بالاصلاح الذى يطلبه العرب وانه وافق أن السيد الزهراوى يترك منصبه قطعا اذا ظهر أن تركه خير لأمته ثم قال رشد رضا لأعضاء الحزب فى اجتماعهم انه يرى أن رأس مال نجاح الأحزاب هو الثقة بالرجال العاملين والتمس منهم الثقة بالزهراوى ۰

لكن الأزمة لم تنته فمضى ســـكرتير الحزب فى تهجمه على الزهراوى فقرر الحزب أن يستدعى الزهراوى من الاستانة وأن يعقد جلسة لدراسة الموقف ۰ وعقد الحزب جلسة فى مساء يوم الجمعة ۲٤ ابريل ۱۹۱٤ اشتد فيها الموقف وظهرت الأزمة بصورة عنيفة فاقترح رفيق العظم رئيس الحزب حَل اللجنة المركزية للحزب وهو

الأمر الذى يتبعه حل الحزب • ودعا حقى العظم الى مضاعفة الحزب لنشاطه حتى تشعر الجماهير بنشاط الحزب ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهراوى وكان رأيه « أما ان نعمل وننشـــط أو نحل الحزب » •

واقترح رشيد دعوة مؤتمر الحزب وفروعه ولكن الخلاف بين رفيق العظم رئيس الحزب وسكرتيره حقى العظم لم تنته وانما ازدادت تعقيدا ، ووضح التصدع فى الحزب وجرى التفكير فى مؤتمر ثان فى القاهرة على غرار مؤتمر باريس ولكن دهمت الحرب العالمية الأولى العالم بعد ذلك بفترة قصيرة وعندها دخلت الحركة العربية فى طور آخر •

ويدخل فى باب التحرك العربى على الأرض المصرية ما قامت به الجالية السورية فى القاهرة ازاء محاكمة عزيز المصرى الذى قدم للمحاكمة فى الاستانة فقد أخذت صحيفة المنار تنشر المقالات التى تندد بذلك (انظر كتابنا عن عزيز المصرى والحركة العربية) ومثال ذلك المقال الذى نشر فى عددها الصادر فى ٢٧ مارس ١٩١٤ والذى أوضح الأثر السيىء فى مصر وسوريا وغيرهما من البلاد العربية وعندما دعا شيخ الجامع الأزهر فى مصر الى اجتماع للتشاور فيما يجب اتخاذه كان من أول الخطباء رفيق العظم ورشيد رضا الذى لخص فى عدد صحيفته المنار ما قاله فى هذا الاجتماع • وأما صحيفة التيمس فقد صدرت أعداد منها بأخبار اعتقال عزيز المصرى ومحاكمته ويدل هذا على أن التحرك العربى من الأشـــقاء السوريين كان بتشـــجيع من بريطانيا هو الآخر احراجا للحكومة التركية •

لقد أشرنا فى كتابنا عن عزيز المصرى الى تلك المقالات فى صحيفة التيمس منها الى جانب المقال المشار اليه سابقا مقالات

عدة أخرى بتاريخ ١١ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان رجاء المصريين بالنسبة للمصرى وفى عدد ١٥ ابريل ظهر عنوان بارز آخر تحت عنوان الحكم على عزيز المصرى وتحته عنوان آخر : غضب مصرى ضد تركيا كما نشرت تلك الصحيفة البريطانية فى عدد ٢٤ ابريل ١٩١٤ خبر الافراج عنه وتفاصيل عن المحاكمة العسكرية ٠

وقد تناول كتابنا عن محب الدين الخطيب دوره فى كتابه المقالات فى صيحفة المؤيد منددا بهذا العمل مثال ذلك مقاله بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩١٤ بعنوان عزيز المصرى درس مؤلم وعبرة مرة وبدأها بقوله :

جزاء سـنمار جـزائى على الهـوى

وكان يمنيني وفـاء السـموئل

وتشكلت من محب الدين الخطيب ورفيق العظم لجنة وجهت الدعوة الى العديد من الشخصيات فى مصر للنظر فى اتخاذ التدابير اللازمة بشأن الحكم الصادر على عزيز المصرى ٠ وتقرر تأليف وفد للذهاب الى الوكالة البريطانية وادارات الصحف عربية وافرنجية لطلب مساعدتها وارسال البرقيات الى الصحف الأوربية وطلب معونتها وبرقية للسلطان العثمانى وملك انجلترا ٠ كما تقرر ارسال برقية للتيمس وشكرها على كتاباتها واستلفات نظر الشعب الانجليزى الى أن الشهود على عزيز كلهم أسافل متهمون بجرائم ويعرفهم المصريون الذين كانوا فى الحرب الطرابلسية وأن الذين أبوا الشهادة أوذوا وطردوا من الجيش ٠ واشترك الخطيب وغيره من أبناء الشام فى تنظيم الاحتفال الذى أعد لاستقبال عزيز المصرى بعد الافراج عنه ٠ خلال ذلك كان الخطيب يصدر منشوراته التى تبث الحماس فى نفوس أبناء أمته العربية منها تلك العناوين الى الأمة العربية ،

الوطن فى خطر ـ نحن الآن فى شقاء ـ البلاد فرغت من الرجال ومن النفوذ ـ قدمنا أولادنا للعسكرية وأموالنا للاستانة لأجل أن ترقى الدولة فكان ارتقاؤها الى أسفل · ويقول « والآن أمسينا وبيننا وبين رجال الاستانة سوء تفاهم نحن نعتقد أنهم اخواننا وهم فى الظاهر يضحكون علينا ، وفى الواقع يرون اننا عبيدهم وأن لهم أن يمنعونا حقوقا وهبها الله · وأن يخرسوا السنة انطقها الله · وأن يعصروا من بلادنا خيراتها فيسقوا بها جوف الاستانة التى لا يمتلىء بطون رجالها التى لا تشبع ·

ومع بدء الحرب العالمية الأولى وانقسام الدول المتحاربة الى كتلتين احداهما تضم المانيا والنمسا والمجر والأخرى تضم انجلترا وفرنسا وروسيا ولم تدخلها الدولة العثمانية مع بدئها الا انه كان معروفا أن النفوذ الالمانى وقد تغلغل فى هذه الدولة سوف يجرها الى صف الالمان ·

وكان رجال الحركة العربية فى مصر يودون لو أن الدولة وقفت على الحياد فى هذه الحرب · يقول الخطيب فى أوراقه : كنا نتمنى لو أنها (الدولة العثمانية) حافظت على الحياد فلم تكن مع أى فريق لتجنب البلاد ويلات الحرب من جهة ، ولأننا وهذا مهم جدا وأحب أن أسجله كنا نرى أن القومية العربية فى دور المخاض ، وانها لم تولد بعد ، وانها تحتاج الى مدة أخرى طويلة لتستطيع أن تحبو ثم أن تقف على قدميها ·

ويمضى الخطيب يوضح أنه لم يكن فى العرب المسلمين عاقل واحد يفكر فى الانفصال عن الدولة العثمانية قبل أن يتم استعدادهم لهذا الانفصال لكنهم كانوا يرون أن تعترف لهم الدولة بحق العرب فى الحياة فيكون التعليم فى الولايات العربية باللغة العربية وأن

يمثل العرب تمثيلا صادقا فى الوزارة ومجلس الاعيان وســـائر المرافق . هذا ما كانوا يحاولون اقناع الاتحاد والترقى به بعد المؤتمر العربى الأول فى المحادثات التى كان يقوم به الزهراوى من جانب وعبد الكريم خليل من جانب آخر وكل من أتيحت له فرصة الاتصال بالترك مثل سليمان البستانى الذى كان وزيرا للزراعة .

كذلك كان من رجال العربية الفتاة من يرى نفس الرأى الذى ارتآه أعضاء اللامركزية فى القاهرة كانت الآراء متفقة ومتلاقيةعلى أن مصلحة العالم الاسلامى والأقطار العربية ، فى ملحمة الحرب العالمية الأولى هى الوقوف على الحياد ، وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الأرض واستبعاد الأمم يحطم بعضهم بعضا .

كتب أحمد مختار بيهم أحد زعماء بيروت الاصلاحيين وعضو مؤتمر باريس العربى الأول فى ٢٦ اكتوبر ١٩١٤ اى قبل ايام معدودة من دخول الدولة العثمانية الحرب يقول « الغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشـــتركة تقضى ذلك وسوف يرى اخواننا الترك ولاسيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب ما يظهر لهم عظيم اخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك .

ويرسل رشيد رسائل الى من يثق بهم فى سوريا يحثهم على الولاء للحكومة ونشر فى جريدة الأهرام ٢٦ سبتمبر ١٩١٤ خطابا عاما نشر خلاصـــته فى المنار ليكون وثيقة تاريخية بعد أن منعت الحكومة العثمانية دخول الجرائد المصرية وفى هذه الرسالة يشكر رشيد رضا السوريين على اخلاصهم وطاعتهم للدولة وكفهم عن طلب الاصلاح وتقديرا لأحوالها الحاضـــرة ويقول لهم حتى انكم ساهمتهم فى هذا أرقى أمم الأرض التى سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية .

وهكذا كان الرأى الغالب لرأى رجـــال الأحزاب والجمعيات العربية سواء العربية الفتاة أو اللامركزية هو تصفية الحساب مع الدولة العثمانية فى هذه الحرب ·

كان حزب اللامركزية فى مصر يرى ضـــرورة تجنب دخول الدولة العثمانية الحرب لأنها على حد قول رفيق العظيم (رئيس الحـــرب) لو دخلت (الدولة) فى هذه الحرب كانت نهاية أجلها ولاسيما اذا تحقق النصر لانجلترا وفرنسا وروسيا واندفعت أطماع الروس وغيرهم من الحلفاء لحل بالنسبة للمسألة الشرقية ·

وطلب الحزب من فروعه موافاته بعدد القوة الموجودة عنده وما هى المساعدة المادية التى يمكن للفروع أن تقدمها للمركز العام وقال الحزب فى بيانه · علينا معشر العرب أن نفكر من الآن فى الوسائط التى تقى اســـتقلالنا من الزوال · وعن الواجب المقدس لحزبنا الذى له نوع من التشكيلات وكل أفراده من أهل الوطنية الصادقة والغيرة على الوطن والحرص على سلامة الاستقلال أن يكون فى مقدمة المفكرين فى هذا الأمر العامل على اتخاذ الوسائط الناجمة لسلامة الوطن وحياة بنيه ·

وكان رشيد رضا قد أسس فى القاهرة حزبا باسم حـــزب الجامعة العربية بعد اعلان المشروطية الثانية وذهابه الى دمشق وماحدث من اعتداء عليه فى المسجد الأموى ووصفه لهذه الحادثة بأنها كانت فتنة مدبرة لأسباب تتعلق بانتخابات المبعوثان ، وان الحكومة بدأت تتدخل فى حرية الانتخاباتو لذلكامتعض وجهاء البلدة من جمعية الاتحاد والترقى · عندما عاد رشيد رضا أسس هذا الحزب الذى اسماه حزب الجامعة العربية وكان حزبا سريا ذكر رشيد فى المقدمة التى كتبها لآثار رفيق العظم أن هذه الجمعية

أسســست للتأليف بين أمراء جزيرة العرب والتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التى انشئت فى الولايات العربية وفى الاستانة لمقاومة الاتحاديين وضغطهم على العرب ولحفظ حقوق العرب فى الدولة والعمل لمستقبلهم ٠

رأى رشيد آفة العرب فى تفرقهم « فرأى المؤسسون أن قوة العرب فى جزيرتهم وأنه لا يمكن الانتفاع بها الا بتأسيس اتحاد حلفى يجمع بين أمرائها ٠٠ » ومن ثم حين أعلنت الحرب رأى رشيد أن يوفد محب الدين الخطيب فى مهمة سرية الى الجزيرة العربية لاستطلاع بعض آراء الجزيرة العربية الى خطر الفرقة والانقسام وعليهم أن ينتهزوا الفرصة الحاضرة التى انشغلت فيها جميع الدول الكبرى بأنفسها ويلموا شملهم ويعاون بعضهم بعضا على الوحدة والتعاون والاستعداد لحفظ سلطنة الاسلام من الزوال على حسب القواعد التى وضعتها جمعية الجامعة العربية وبثها فى جميع البلاد ٠٠ وافضلهم من بدأ بمد يده لمصافحة غيره ومعاهدته على ذلك ٠

كانت الخطة التى رسمت بالنسبة لسفر محب الدين الخطيب أن يصل الى البصرة للاجتماع مع السيد طالب النقيب الذى كان على اتصال بالمراسلة مع حزب اللامركزية للتفاوض معه فيما يهم العرب ثم يسافر الى بن السعود وكان من المقرر ايفاد غيره الى الأمام يحيى وثالث الى الشريف حسين ورابع الى الادريسى فى عسير لتجميع آراء العرب ورسم خطة يوافق عليها الجميع ٠

وسافر محب ـ على نحو ما أوضحنا فى كتابنا عنه على ظهر باخرة ايطالية من السويس يوم ٢٦ اكتوبر قبل أيام قلائل من دخول الدولة العثمانية الحرب سافر الخطيب من السويس الى بومباى ومنها الى بوشهر فى طريقه الى البصرة ٠ لكن السلطات البريطانية

هناك اعتقلته ونقلته الى المحمرة ثم البصرة حيث أودع السجن ولم تفرج عنه الا بعد توسط رشيد رضا فى القاهرة لدى السلطات البريطانية التى أبرقت الى الجهات البريطانية هناك للافراج عنه ولم تتح له أن يقوم بمهمته ·

وكان لدخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب الالمان من شأنه أن تأخذ الحركة العربية معه مسار آخر ·

الفصل الرابع

موقف مصر من القضايا العربية

لعل اهم ما ينبغى الاشارة اليه فى هذه الفترة موضوع الدراسة أى حتى قيام الحرب العالمية الأولى هو الموقف الذى وقفته مصر من الاحتلال الايطالى لطرابلس الغرب ١٩١١ ·

واهمية هذه القضية انها جاءت فى موقف كانت الحـــركة العربية قد بدأ يشتد عودها ويقوى بفضل سياسة الاتحاديين والنزعة الطورانية التى اصطبغت بها سياستهم ، الأمر الذى كان من شانه أحداث كثير من الخلاف بينهم وبين العرب ·

وقد قلنا فى كتابنا دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر أن قضية العدوان الايطالى على طرابلس الغرب كان من القضايا محل الصراع بين العرب والاتحاديين · فقد قدم نواب طرابلس الى مجلس 'المبعوثان تقريرا مفصلا ذكروا فيه براهين عدة على تهاون الحكومة فى اعداد وسائل الدفاع عن تلك الولاية النائية ومن ثم حملوا الدولة العثمانية مسئولية الاحتلال الايطالى بطرابلس الغرب ذلك أنه لم يكن فيها من وسائل الدفاع مايمكن به صد العدوان

الايطالى فقد كانت بحكم وقوعها بين مصر المحتلة من الانجليز وبين تونس المحتلة من الفرنسيين ـ شبه معزولة عن باقى الدولة العثمانية وكان الاتصال بينها وبين عاصمة الدولة لا يتم الا بالطرق البحرية ولم يكن هناك خط ملاحى مباشر بنيها وبين الاستانة وكان الانتقال اليها يتم على الخطوط الملاحية الأجنبية الغير مباشرة وعلى سفن اجنبية وكانت بسبب ذلك تعد منفى للموظفين المغضوب عليهم فى الدولة العثمانية ٠

ولن نتناول فى هذا الفصل قصة العدوان الايطالى على هذا الاقليم العربى فقد تناولنا ذلك فى كتابنا عن عزيز المصرى والحركة العربية لكننا نود أن نشير الى موقف مصر من هذه القضية التى مثلت عدوانا أوربيا صارخا على ولاية عربية مجاورة لها ٠

وفى المذكرة التى قدمها المرحوم الأستاذ د / مصطفى عامر بعنوان الصلات الجغرافية بين مصر وليبيا والتى كلفته جامعة الدول العربية أن يعدها خلال سعيها لحصول ليبيا على استقلالها ووحدتها بعد الحرب العالمية الثانية والتى نشرها المرحوم د ٠ محمد فؤاد شكرى فى كتابه من دولة لليبيا الحديثة الجزء الأول المجلد الأول دراسة مستفيضة لهذه الروابط الجغرافية بين كل من مصر وليبيا فهناك وحدة الاقليم الجغرافية حيث يكاد يكون الاقليم الممتد من غرب الدلتا الى حدود تونس واحدا فى خصائصه الجغرافية فهو بوجه عام متجانس فى صفاته الطبيعية وفى مميزاته البشرية كما أنه يختلف اختلافا تاما عن الاقليم الذى يقع غربه والممتد من تونس الى مراكش وهو الاقليم المعروف ببلاد المغرب او بلاد الأطلسى ٠ ثم انتقلت المذكرة لتوضح الروابط التاريخية بين سكان مصر وليبيا منذ عهد ما قبل الأسرات ثم انتقلت المذكرة لتذكر تحت عنوان وحدة الجنس والثقافة والدين انه نشأ عن الاختلاط بين

المصريين والليبيين من قديم الزمان أن أصبح سكان غرب الدلتا والصحراء الغربية لا يختلفون عن سكان ليبيا نفسها ٠ وقد ساعدت هجرات القبائل العربية الى كل من مصر وليبيا على توحيد الاقليمين الىحد بعيد وعلى توطيد أركان العـــروبة الحقة فى كل منها فلا توجد فيها لغة تنافس اللغة العربية ولا دين ينافس الدين الاسلامى ولا عادات أجنبية تنافس العادات العربية ٠

واذا كان العرب قد سكنوا الاقليم منذ القرن السابع بعد الميلاد فان هجرات عربية جديدة واسعة المدى قد وصلت الى ليبيا فى القرن الحادى عشر ، وذلكعندما هجرت قبائل بنى هلال وبنى سليم الى مصر ثم الى برقة ٠٠ وفى الجملة يمكن أن نقول من طرابلس الى الاسكندرية يوجد شعب واحد والبعض منه الذى يسكن أرض مصر يشبه بدو ليبيا ولا يشبه فلاحى مصر ٠

كما أوضحت المذكرة الصلات الاجتماعية والاقتصادية فحياة القبائل فى ليبيا كحياتها فى مريوط مرتبطة بالرعى حيث هناك عدة طرق تربط مصر بليبيا فهناك الى جانب الطريق الساحلى الطريق من الدلتا الى وادى النطرون وواحة ســـيوة الى جغبوب وأوجلة والطرق الآخر من وادى النيل الى الواحة البحرية وواحة الفرافرة فى مصر ثم الى الكفرة ثم أوضحت الصلات الحربية بالقول ان حدود مصر الغربية كانت فى كل العصور حدودا ضعيفة للغاية ليس فيها من العقبات مايمكن أن يقف فى سبيل الهجرات ولا فى طريق الغزاة والفاتحين ٠ ولقد تأثرت مصر بغزوات الليبيين فى عهد الفراعنة كما تأثرت فى عهود مختلفة بهجرات واسعة من البدو الساكنين فى غرب الأراضى المصرية وتكرر هذا التهديد الحربى لأمن مصر وسلامتها فى القرن العاشر بعد الميلاد وذلك عندما غزاها الفاطميون آتين من الغرب ٠ ومضت المذكرة توضـــح وصـــول

السنوسيين الى سيدى برانى ومرسى مطروح فى سنة ١٩١٥ فى الحرب العالمية الأولى • ثم كانت الحرب العالمية الثانية وجاء التهديد لمصر مرة أخرى من ناحية الغرب وفى هذه المرة على أيدى الايطاليين والألمان وانتهت الى أن مستقبل ليبيا السياسى يهم مصر اكثر مما يهم أية دولة اخرى لأن ليبيا تجاور مصر •

أردت بالاشارة الى هذه المذكرة توضيح مدى الصلات المختلفة التى تربط مصر بذلك الاقليم من اقاليم الدولة العثمانية ومن ثم نتعرف على موقف مصر من هذا العدوان الايطالى •

يقوم المرحوم د / محمد حسين هيكل فى كتابه مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الأول فى هذا الصيف صيف ١٩١١ ، وقع حادث دولى كان له فى مصر صدى عظيم ، وفى السياسة المصرية أثر بالغ • فقد أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى برقة وفى طرابلس الغرب • وكانتا ولايتين تركيتين تحكمهما السلطة العثمانية حكما مباشرا • ماعسى أن يكون موقف مصر من هذه الحرب ؟ انها داخلة فى نطاق السيادة التركية مع تمتعها بالاستقلال الداخلى • أفتسير قواتها المسلحة الى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية ؟ أم تقف على الحياد أن ليس لها من وراء هذه الحرب مغنم ؟ واذا وقفت على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بأراضيها • فماذا يكون موقفها • أتمنع هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائى من جانب ايطاليا ، أم تقتضيها بتبعيتها الاسمية للسلطان العثمانى أن تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن تخرج من هذا الحياد ؟ وانجلترا ما موقفها وهى ممثلة مصر ؟ هل تسهل للجنود التركية المرور ، أم تقف فى طريقها تصدها ان هى حاولت هذا المرور ؟

والحقيقة أن تساؤل الدكتور هيكل بخصوص موقف مصر كانت اجابته معروفة ان كان يقصد موقف الحكومة المصرية الرسمى • فموقفها بالطبع هو موقف حكومة الاحتلال وما كان لها أن تغير فى هذا الموقف أو تبدل فيه وهى تحت امرة قوات احتلال بريطانية على أرضـــــها •

وكانت ايطاليا قبل اقدامها على احتلال طرابلس الغرب قد مهدت لذلك بسلسلة اتفاقات سرية لهذا الغرض ، فعقدت مع انجلترا اتفاقا سريا فى ١٢ من فبراير ١٨٨٧ اكد تأييدها لأعمال بريطانيا فى مصر مقابل تدعيم بريطانيا للأعمال التى تقوم بها ايطاليا فى أى ناحية من سواحل شمال أفريقيا ولاسيما فى طرابلس الغرب وبنى غازى وذلك فى حالة استيلاء دولة ثالثة على أى جزء من أجزاء تلك السواحل وفى كل الأحوال سيساعد الطرفان بعضهما البعض فى جميع الأمور التى تتعلق بالبحر المتوسط •

كذلك عقدت ايطاليا اتفاقتين سريتين مع فرنسا الأولى فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، والثانية بعدها فى السنة التالية سنة ١٩٠٢ اعترفت فيهما فرنسا بأن برقة وطرابلس منطقة نفوذ ايطاليا كما وافقت ايطاليا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش •

ولهذا أجاب الدكتور هيكل على تساؤله بقول : كان موقف الحكومة المصرية فى هذا الظرف الدقيق سلبيا صرفا • تركت الأمر لانجلترا ولممثلها فى مصر لورد كتشنر تتصـــرف فيه السـياسة البريطانية بما تشاء •

كان موقف مصر من هذه الحرب أمرا هاما بالنسبة لكل من الدولة العثمانية وايطاليا فبالنسبة للأولى كانت مصر رسميا ولاية عثمانية ومن حق الدولة العثمانية عليها ان تسلك المسلك الذى

تسلكه هذه الدولة خاصة اذا كانت هذه الدولة فى حالة حرب مع دولة أجنبية وفى الوقت نفسه تجاور مصر هذا الاقليم الذى وقع عليه العدوان • ودار تساؤل عما اذا كان من حق الدولة العثمانية أن تمرر جنودها عبر مصر لتحارب الايطاليين فى طرابلس الغرب • كانت العناصر الوطنية فى مصر شبه مجمعة على أن تبادر الدولة العثمانية الى ارسال جنودها الى مصر دون اســـتئذان وزارة الخارجية البريطانية أو حتى أحاطتها علما بذلك ، وانما تجىء جنودها مباشرة وترسل أوامرها الى الحكومة المصرية لاستقبالها وتمهيد السبل لها والمحافظة عليها ومدها بما تحتاج اليه طبقا لحقوق الدولة العثمانية وما تنص عليه الفرمانات العثمانية التى صدرت منظمة حقوقه الدولة العثمانية فى استخدام الجنود المصرية عند نشوب الحرب فى أية جهة نريدها • وظهرت مقالات فى الجريدة تحت عنوان مرور الجيش العثمانى بمصر تناقش هذا الرأى ولم يشـــذ لطفى السيد عن هذا الاجماع فى حق الدولة العثمـــانية فى مرور قواتها عبر مصر • ومن المعروف أن لطفى السيد كان له رأيه الذى خالف به الكثيرين من هذه الحروب فيقول الدكتور هيكل : بينما كان الناس فى الطفرة الأولى من هذا الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة ، اذا بلطفى بك السيد يطالعهم فى الجريدة بثلاث مقالات فى ثلاث أيام متعاقبة عنوانها جميعا « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » يدعو فيها المصريين الى التزام الحياد المطلق فى هذه الحرب ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر ولانشاء المرافق المصرية النافعة لأبناء الوطن ، فلشد مايحتاج أبناء مصر الى انشاء هذه المرافق ، ولشد ما تفتقر مصـــر الى الاصـــلاح » •

وقد أثارت هذه المقالات شعور المصريين وصدمتهم فى عواطفهم الأمر الذى لم يستطع معه لطفى السيد أن يقنع حزبه بمجاراته فيما

يقصد ويكتب ، بل اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام المصرى أو نقول على حد قول هيكل .. خشى الحزب مواجهة الرأى العام فنكص فلم يتابع لطفى ولم يؤازره ، واضطر لطفى الى الانسحاب من الميدان والسفر الى برقين تاركا الجريدة لمن يتولى غيره أمرها . وترك الأمر للدكتور هيكل يكتب المقالات السياسية الذى ترك الكلام عن موقف مصر المحايد وأخذ يهزأ بايطاليا التى اعتبرت احتلالها لبرقة وطرابلس نزهة بحرية فلما جاءت لقيت من الهزائم ما جعل هذه النزهة وبالا عليها .

المعروف عن موقف الحكومة البريطانية فى احتلال الايطاليين لطرابلس الغرب أنه لم يكن موقف المعارض لهاذ الاحتلال ورأت أن خير ما يتبع فى مصر أثناء هذه الحرب هو موقف الحياد التام وما كان لها أن تقف غير ذلك حتى لا تصدم الشعور العام للمصريين فى هذه الحرب . واصـــدرت بريطانيا تعليماتها بالفعل الى قائد القوات الايطالية المحاربة أن المياه الاقليمية المصـــرية تعتبر مياها محايدة فى الوقت الذى تعهدت فيه لايطاليا أن تكون مصر قاعدة لعمليات عسكرية ضدها .

ومن ثم لم تقدم الحكومة الايطالية على محاصرة أى ميناء مصرى اطمئنانا لموقف الانجليز. كما أبلغ كتشنرالسير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية أن مصر تسير على قواعد الحياد الدولى كما ان الأمور تسير على مايرام باستثناء بعض السفن العثمانية فى الموانى المصرية أكثر من أربع وعشرين ساعة (حسبما تقضى به قواعد ذلك القانون الا تبقى سفن المتحاربين فى أحد موانى الدولة المحايدة اكثر من تلك المدة) تجنبا للاحراج مع الدولة العثمانية .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية لم ترسل قوات لها لتجتاز مصر وهو مافسره بعض الباحثين أن الدولة العثمانية كانت تخشى اذا

هى اقدمت على اجتياز مصر بقواتها ان تعتبر بريطانيا ذلك خرقاً للحياد الذى فرضته على البلاد وبالتالى قد يؤدى ذلك الى ضياع حقوق الدولة العثمانية فى مصر بمعنى انه قد تعترض انجلترا على ذلك وبذلك فقدان هذه الدولة للرابطة الاسمية التى لها على مصر · ولكن الحقيقة هى أن هذه الدولة لم يشغلها امر ارسال قوات لها عبر مصر فما كانت لتستطيع ان ترسل قوات الى هذا الاقليم · ولقد اثار النواب العرب فى مجلس المبعوثان بعد حدوث هذه الكارثة خطر استهتار الاتحاديين فى المحافظة على طرابلس الغرب ، ولمسوا نتيجة سحبهم الجند منها كى يرسلوهم الى اليمن ويتركوها عزلاء ليضـــربوا بهم منطقة عربية اخرى · فاعتمدت خطة الأتراك على تجربة الدفاع المحلى عن الاقليم بابناء الاقليم وهو ما التجأ اليه انور بك وعزيز المصرى ومصطفى كمال بك (اتاتورك فيما بعد) الذين تطوعوا للذهاب الى طرابلس الغرب من اجل تنظيم الدفاع عنها ورافقهم بضعة عشر من الضباط العرب الآخرين فوضع هؤلاء خطة تقضى بجمع الأهالى وتسليمهم وتدريبهم تدريبا سريعا وعزز هذه الخطة اقبال العرب من سنوسيين وقبائل محلية ومتطوعين سـودانين أو مصـريين من مختلف البلاد العربية على التعليم العسكرى · ورأى البعض فى ذلك جدوى للتشكيلات العسـكرية المحلية فى الدفاع عن اطراف الدولة العثمانية وزادت فى قناعة الساسة العرب فى اهمية اللامركزية منهاجا فى حكم الدولة ·

وحتى لا يصدم كتشنر المصريين فى شعورهم فقد شجع حركة جمع التبرعات لتركيا اعانة لها على نفقات الحرب بل شارك بالتبرع فى هذه الحملـة وكان أمراء الأسرة المالكة فى مصـر على رأس الوفود التى تنقلت فى الاقاليم لجمع التبرعات فكان ذلك دافعا للناس على البذل بسخاء لأنهم رأوا الحكومة لاتعارض وامراء البلد المالك

يشجعون ويتبرعون والمعتمد البريطانى نفسه يشجع ويشـــترك ٠ ولقيت الدعوة اذنا صاغية من الجميع وذهب الأمير عمر طوسون مع الهيئة القائمة لجمع التبرعات الى المنصورة فجمع فى أقل من نصف ساعة مائة الف جنيه وستة آلاف ذهبا ٠

كذلك يحدثنا الدكتور هيكل عن أن هذا الشعور المتعاطف مع دولة الخلافة الاسلامية عم كل مديريات مصر ٠ وكان الناس ينظرون فى ذلك دهشين كيف تشجع انجلترا حركة جمع تبرعات كيف تشجع دولة اسلامية على دولة مسيحية ٠ على أن السياسة البريطانية لم تذهب أبعد من ذلك ولم تسمح باشتراك الجيش المصرى فى هذه الحرب ولم تسمح بمرور الجيوش التركية من الأراضى المصرية محتجة فى هذا وفى ذاك بأن مصر مستقلة داخليا عن تركيا ، فاذا اشتركت الحكومة المصرية فى الحرب لم يقف الأمر عند اعتبار ذلك تعد على استقلال مصر ، بل أدى بانجلترا ولها فى مصر مركزها الخاص بحكم الاحتلال الى أن تهتم بالخروج عن الحياد ، وبالاشتراك فى حرب ضد ايطاليا ليس له مسوغ ٠

ولذلك عين كتشنر مأمورين انجليز بدلا من المصـــريين فى الحدود العـــربية ومنع أهل برقة وطرابلس من دخول الأراضى المصرية وفرض رقابة صارمة على الحدود المصرية حتى تعطلت التجارة بين طرابلس ومصر ورفض (اللورد) ارسال بعض اداريين من الجيش لمساعدة الأتراك كما رفض الموافقة على تطوع جماعة من الضباط المصرين فى الجيش التركى ووضع للعيان أن كتشنر بتصرفه ذلك يريد أن يوضح على الملأ أن مصر لم تعد ولاية عثمانية على الاطلاق ٠

وعندما طلب زعماء البدو من أولاد على تجنيدهم للحـــرب وافق على ذلك على أن يطبق عليهم من الآن فصاعدا قانون الخدمة العسكرية التى كانوا معفون منها ٠

وفى هذه الأثناء كان هياج الخواطر فى العالم الاسلامى قد بلغ ذروته ٠ فابرق امام اليمن يحيى على استعداده لقيام بمائة الف جندى تحت قيادته بين محارب ومتطوع وأبرقه أمير مقاطعة نجد (الأمير عبد العزيز بن سعود) يقول « ان مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية ٠٠ وانه وجميع القبائل التى تحت أمره مستعدون للزحف في ظل الاعلام العثمانية الى حيث تامرهم الدولة العلية » وجاء كثيرون من أبناء البلاد الاسـلامية للتطوع فى الجهاد وفى طرابلس الغرب ضد ايطاليا المعتدية ٠ وزاد عدد هؤلاء المتطوعين فوصل فى العام التالى (١٩١٢) حوالى الستة عشر الفا ٠ يقول الدكتور شكرى فى كتابه السنوسية دين ودولة : وكان أهم الأسباب التى دعت آلاف المسلمين الى التطوع فى صفوف المجاهدين تلك الرابطة التى دفعت بهذه الشعوب الاسلامية الى التكاتف والتساند فى وجه العدو والمعتدى وعلى وجه الخصوص عندما وقع الاعتداء على قطر من أقطار دولة الخلافة الاسلامية وكان المسلمون متحفزين وقتئذ للانتصار دائما لدولة الخـلافة ويقبلون الجهاد من أجل المحافظة على كيانها لأنهم توقعوا من سـقوطها وانحلالها ضياع الكلمة وضعف القوة ولم يكن العرب قد استعدوا بعد لانشاء دولة عربية مثبتة الدعائم لتكون مركزا للامانة العظمى ، كما كان يخيفهم ويزعجهم شبح الاستعمار الأجنبى ويشفقون على قطر عربى شقيق من الوقوع فى براثنه ٠ أضف الى هذا أن الايطاليين سرعان ما ظهروا فى أثناء المعركة الأولى والثانية انهم لا يتورعون عن ارتكاب أخس أنواع الفظائع ضد الأهلين فى أى مكان نزلوا به بغية الظفر بأعدائهم والتنكيل بهم لارغامهم على ترك المقاومة والرضا بالتسليم السريع ٠

كان المصريون من أسبق الشعوب التى بذلت المعونة للمجاهدين فى ليبيا • فشكلت اللجان لجمع التبرعات كماقلنا • وكان أهمها اللجنة العليا التى تأسست بعد الاعتداء الإيطالى بأيام قليلة (١٤ اكتوبر ١٩١١) برئاسة الأمير عمر طوسون • كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة المرحوم الشيخ على يوسف وقررت انشاء مستشفيات فى الميدان وكان من أثر ذلك أن سافرت البعثة الأولى فى ٧ نوفمبر من العام نفسه وتوالت البعثات الطبية بعد ذلك •

واذا كانت بريطانيا قد تعهدت والتزمت ببقاء مصر (العثمانية) محايدة فى الحرب الدائرة بين ايطاليا والدولة العثمانية وقبلت ايطاليا هذا الحياد بل ورحبت به فلاشك أنه لم يكن ثمة مبرر للموقف الذى اتخذته السلطات الايطالية ـ نبعثة الهلال الأحمر المصرية ومهمتها انسانية بحتة ومن المتفق عليه دوليا إلا توضع عقبات فى وجه تأدية البعثات الطبية لمهامها سواء كانت من الجانبيين المتحاربين او من طرف ثالث يتخذ موقف الحياد • فقد وجه الشيخ على يوسف رئيس تحرير المؤيد رسالة الى صحيفة المورننج بوست البريطانية بأن الايطاليين رفضوا التصريح لبعثة الهلال الأحمر المتجهة الى طرابلس بحرا بالنزول الى البر •

عبر كتشنر عن أسفه لهذا الموقف من جانب السلطات الايطالية وشعر أن هذا الموقف سوف يزيد من حدة العداء الذى يشعر به المصريون نحو ايطاليا • كما أنه سوف يزيد من حدة الصراع ومرارته ويصل بالحرب الدائرة الى ذروتها المريرة •

وخوفا من ذلك كله سـعت الحكومة البريطانية عن طريق سـفيرها فى روما ـ لاقناع الحكومة الايطالية باعادة النظر فى قرارها الخاص بمنع بعثة الهلال الأحمر ، ولكن مساعى السفير البريطانى لم تنجح •

كانت الحكومة الايطـــالية تتذرع باتخاذها هذا القرار بالمنع استنادا الى ما جاء فى تقرير الجنرال كانيفا قائد القوات الايطالية ـ بأن الأهالى فى طرابلس (قد يعتبرون نزول بعثة الهلال الأحمر فى طرابلس فى الوقت الحالى بمثابة دليل يؤكد استمرار السيادة التركية) بالاضافة الى التعلل بأن الحكومة الايطالية تلقت معلومات من مصادر عدة تؤيد أعتقادها بأن الأمير عمر طوسون وجمعية الهلال الأحمر المصرية لديهما خطة مرسومة ومنظمة لارسال الضباط والمؤن الى طرابلس « حيث مازالت المقاومة مستمرة بفضل التشجيع الذى تلقاه من مصر « وان الايطاليين يشكون فى ان افراد بعثة الهلال الأحمر ما هم الا ضباط متنكرون ، رغم ان السفير البريطانى فى روما رد على هذه النقطة الأخيرة بانه من السهل التأكد من شخصية الأطباء المرافقين للبعثة • كما اكد كتشنر انه لايمكن خروج اسلحة ومعدات ومؤن من مصر بسبب الاجراءات التى تتخذها فعلا السلطات البريطانية •

ومع ذلك فقد تمسكت الحكومة الايطالية بموقفها وبدأ السفير البريطانى فى روما يلاحظ ان الجنرال كانيفا قد قرر اتخاذ موقف بالغ الصرامة فى هذه المسألة حتى انه رفض ايضا السماح لبعثة الصليب الأحمر الالمانى •

وقد استمر كتشنر يراسل حكومته لكى تقوم باتصالات مع الحكومة الايطالية من اجل السماح بسفر بعثة الهلال الأحمر ، وقد استفسرت منه حكومته عن الاجراءات التى يمكن ان يتخذها لضمان السيطرة على تكوين البعثة ونشاطها فى النهاية بحيث يمكن معه القضاء على الشكوك الايطالية •

ورد كتشنر انه من أجل الحيلولة دون اخفاء الأسلحة والعتاد وغيره فان حقائب البعثة سوف تخضع لتفتيش دقيق على يد ضباط

بريطانيين · وبعد الاطمئنان الى ذلك فان أفراد البعثة سوف يتسلمون جوازات سفرهم من قومندان شرطة الاســكندرية أو من وزارة الداخلية ذاتها ثم تراجع مرة أخرى عند السفر من أول محطة على الخط الحديدى فى سكة حديد مريوط ·

وقد ابلغ سفير بريطانيا فى روما وزير الخارجية الايطالية بكل هذه الاحتياطات التى سوف يتخذها السلطات فى مصر للتأكد من شخصية افراد بعثة الهلال الأحمر وأمتعتهم ومهماتهم ، ومع ذلك أجاب المركيز دى سان جوليانو بأنه لايستطيع أن يصدق أن أهداف هذه البعثة أهداف انسانية بحتة الا انه على ثقة أن الاجراءات التى يتخذها لورد كتشنر ستحول دون استخدامها استخداما سيئا ·

وفى يناير ١٩١٢ اقيمت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية لجمع التبرعات للهلال الأحمر ·

ليس معنى هذا أن كل المصريين كانوا على هذا الرأى من حيث ضرورة مساعدة الدولة العثمانية فى محنتها والوقوف مع الشعب الليبى الشقيق · يقول لطفى السيد انه عندما قامت الحرب (اغارة ايطاليا على طرابلس الغرب) ظننتها فرصة لتحقيق ما كنت ادعو اليه من هذه الحرب وهى أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لاتجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تســتطيع أن تنقذنا من الاحتلال البريطانى الذى لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتماد على انفسنا ·

ويقول لطفى السيد وقد اغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكنى لم التفت الى غضبهم واتفق ان جاءنى كتاب من تاجر بدمياط لا أعرفه ، يقول فيه أن الطليان احتجزوا له سفينته محملة بالأرز فى عرض البحر لأنها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر ، فذهبت

الى حسين رشدى باشا وزير الخارجية وقتئذ واطلعته على الخطاب وطلبت اليه التوسط بالافراج عن السفينة ، فخابر ممثل ايطاليا فى مصر فأفرج الطليان عنها ، وعادت السفينة الى صاحبها ٠

وذهب لطفى السيد مرة اخرى يطلب الى رشدى أن يستبدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط ، ويعاود الكرة على رشدى باشا فى ثالثة طالبا اليه ان تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية وان تنصب الخديو ملكا عليها ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال، ورجاه باسم حزب الأمة ان يعرض هذا الأمر على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ، وطلب اليه الا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوازرة فى ذلك الحين ٠ وبعد يومين استدعاه رشدى وأخبره أن الخديو مسرور جدا من هذه الفكرة وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لأن انجلترا لا تريد مضايقة تركيا ٠ وقال له انه اخبر بها سعيد باشا فاعتبر لطفى ذلك خيانة من رشدى ثم ذهب الى اللورد كتشنر وحادثه فى الأمر فقال له كتشنر : لقد بسطنا يدنا لتركيا فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر المانيا ولو انها كانت قد قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيرا ومع هذا فانى لا أجد الوقت مناسب لقبول فكرتك ٠ رجع بعدها لطفى الى رشدى باشا وكان قد قابل الخديو مرة ثانية فقال له أن الخديو يرى أن يؤلف وفد من عدلى باشا وسعد باشا وأنت للذهاب الى لوندره للسعى لتحقيق هذا الأمر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى وأبدى الخديو استعداده للتكفل بنفقات السفر ٠

واجتمع الثلاثة (رشدى ، عدلى ، وسعد) فى بيت سعد زغلول يبحثون تدبير الخطة واخذ لطفى ينشىء حملة فى هذا المعنى تحت عنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) ٠

يقول لطفى السيد أن هذه الأحداث امتدت أسابيع ، فى أثنائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والأعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض، ويشترون المؤن والأسلحة ويرسلونها للجيش التركى فى طرابلس ·

وكانت الصحف المصرية ـ عدا الجريدة ـ تشجع هذه الحركة وتنشـر أخبـارا عن هذه التبرعات تنبىء أن الأمة كلها مع تركيا فتداول الثلاثة فى هذا الموقف الذى وصـــفه لطفى بأنه موقف عســـير لأن الأمة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لايمكن أن تريد الانفصال عنها ، ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط فى الماء ·

لعل هذا يفسر ما يراه بعض المؤرخين من أن الخديو عباس وقف موقف المتردد من الحرب الطرابلسية ففى بداية الحرب سهل ارسال الاعانات والبعثات الطبية الى المجاهدين فى طرابلس ثم تغير موقفه بعد ان تحولت الحرب لصالح الايطاليين ·

ويوضح الأمير شكيب ارسلان ما طرأ على موقف الخديو من تغيير فى رسالة بعث بها الى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوى من جنيف فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ يشرح فيها ما وقع له عندما قابل سمو الخديو فى أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر فى طريقه الى الاستانة للبحث فى مصير طرابلس الغرب كتب الأمير « وعندما جئت من طرابلس الى مصر فى شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر الى الاستانة مسرعاً ·· كان السبب فى ذلك أنى علمت أن الدولة قررت الصـــلح مع ايطاليا فخفت ان تهمل طرابلس تماما فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة على يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس ،

ولما وصلت الى السلوم قال لى رجال الحكومة المصرية هناك أن سمو الخديو أرسل يسأل عنى وأمر أن الباخرة التى تأتى الى مرسى السلوم تأخذنى أنا وجماعتى الى الاسـكندرية وانتظرتنى الباخرة فتأخرت عن الورود فرجعت بدونى • فبقيت سائرا حتى وصلت الى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوى وكان يقال له رأس التركيب فقالوا لى هناك أيضا أن الخديوى جاء بنفسه وسأل عنك وقد أمر انك عند وصولك تعرض له ففرحت انا بهذه الأخبار ظانا أن الخديوى متشوق الى أخبار الجهاد ويريد أن يعرفها منى فيلح فى وصولى • فلما وصلت الى الاسكندرية وجدت صـدقى أحمد بك العريسى البيروتى أحد أعوان الخديوى فى انتظارى • فقال لى أن أفنديتا أرسلنى لاستقبالك ولاذهب بك الى سراى رأس التين لتنزل ضـيفا عنده • فذهبت ودخلت عليه وأنا بثياب السفر حسب ارادته ، وكنت أظن أن أول سؤاله يكون عن المجاهدين وحالة الجهاد ، وكا نمرادى أن أقول له أن كل شىء جيد لولا قلة علف البولريد لعله يساعد بطريقة تزيح هذه العلة • فما راعنى الا كون الخديوى سأل عن كل شىء ماعدا الجهاد • فبرد وجهى وخرجت متقبض الصدر وكاشفت أحمد العريسى بما وجدته فى نفسى فقال لى اذا سألك افندينا عن الحرب فلا تقل له انه يلزم جبخانه وانها قليلة • قلت لماذا ؟ قال : يجوز أن أفندينا يقول ذلك لأحد بدون قصد فمن واحد الى آخر يصل الخبر الى الطليان • والحيققة التى علمتها فيما بعد أن الخديو كان اتفق مع ايطاليا على أن يبيعها سكة حديد مربوط بثمن عظيم فى مقابل مساعدتها على اخماد الحرب • ولكن أحمد العريسى لم يكن يقدر يبوح بالسـر وهو مسلم مخلص فنبهنى حتى لا أقول للخديو ان أحد المجاهدين فى احتياج الى الجبخانة • ثم تركنا على الافطار لأن الوقت كان رمضان • وكان على المائدة الخاصة بسمو الخديو بجانبه حسين

باشا رشدى ثم قاضى مصر وكان تركيا · وهذا العاجز والشيخ على يوسف · وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون كثيرون · وبدأنا بالحديث على الأكل · فقال الشيخ على يوسف : أن الدول قررت عدم اقراض مال لتركيا اذا كانت لاتزال ترفض الصلح مع ايطاليا · فقلت له : ان تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظا لشرفها فقال ومن أين تأتى بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن ايطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه · فقال الشيخ على « الا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة الى تركيا كالمليون جنيه بالنسبة الى ايطاليا فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب » · فقلت له : اذا عجزت الدولة فالعالم الاسلامى يقدر على مساعدة طرابلس ، فقال اما نحن أهالى مصر فلا نقدر اذا صالحت الدولة على طرابلس أن تستمر على مساعدة الطرابلسيين اذ يكونون حينئذ رعية ثائرة على ايطاليا ·

« هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديو · بل الخديو كان ساكتا وقد علت وجهه الحمرة · وفيما بعد فهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديو لأنه كان مطلعا على الدسيسة · فانا لم أكن أعلم شيئا عن هذه الدسيسة · ولم أكن لابالى بها على فرض انى علمت بها · فلما سمعت جدال الشيخ على هذا عقبت وقلت له بحدة : لا تساعدون أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم · فانقطع الكلام على أثره هذه الحدة ووجم الخديو وصار قاضى مصر يبتسم · وقمنا عن السفرة الى الصـــلاة · فأخذنى الخديو بيدى لأنه شعر بكونى تأثرت جدا · ومازال حتى وصلنا الى السجادة الخاصة به فتنحى قليلا الى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعنى · وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى وأنا لا أعى من التأثر · فلما بدأ الامام الصلاة ولم يكن الامام حاضرا

مجلسنا ولا نسمع شيئا مما دار بيني وبين الشيخ على الهمه الله أن يقرأ بعد الفـــاتحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم أن العزة لله جميعا) ٠

ويذكر هذا الخطاب مسألة اتفاق الخديو عباس حلمى الثانى مع أبطاليا على أن يبيعها ســـكة حديد مريوط بثمن عظيم نظير مساعدتها على اخماد الحرب وهى مسألة تحدث عنها أحمد شفيق باشا فى الجزء الثانى من كتابه (مذكراتى فى نصف قرن) فذكر أنه أشيع بعد عقد الصلح بين الأتراك والطليان بثلاثة شهور أى فى أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان أن الخديو باع سكة حديد مريوط الى بنك درسدن الالمانى ، ولكنه لم يلبث أن أتضح بعد ذلك أن عقد البيع قد أمضى فى الحقيقة مع بنك ايطالى ٠ ورخص له الخديو بأن يمد هذا الخط الى نهاية حدود طرابلس فى السلوم فثار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز ٠ وتدخل اللورد كتشنر فى الأمر وهدد (عباس) وأحرج مركزه فاضـــطر الخديو الى العدول عن بيعها لايطاليا ، وألغى عقد البيع مع البنك الايطالى وباع السكة الى الحكومة المصرية ٠

وفشلت وساطة الخديو لدى السنوسيين للاخلاد الى السكينة الذين صمموا على القتال حتى اجلاء القوات الايطالية عن الأراضى الليبية ٠ فلم ينجح الوفد الذى أرسله الخديو فى أواسط ١٩١٣ والمؤلف من بعض الأشخاص ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال المال فى مصر ومعهم كتابا خاصا من الخديو الى الســـيد أحمد الشريف ٠ لكن الوفد رجع الى القاهرة فاشلا فى مسعاه ٠

ويذكر أحمد شفيق الى جانب ماتقدم شيئا عن مهمة عبدالحميد بك شديد للسيد ادريس السنوسى ليغريه بالاتفاق مع ايطاليا حسما

للحرب ، على أن يسعى الخديو فى الحصول له على امتياز من ايطاليا وتنصيبه رئيسا على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ احمد السنوسى الكبير • وفى نظير ذلك يتحصل سعوه على وعد ببيع سكة حديد مريوط لأحد بنوك ايطاليا بثمن يرتضيه لكن المساعى التى كان عباس يبذل الجهد فيها للوصول الى ذلك فشلت لأن كشتنر ضربها ضربة قاضية •

وكان لابد أن تفشل كل المساعى وجاء فى المذكرات نفسها ، ولما توالت انتصارات ايلاطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد فطلب من كشتنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فأمتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ماسمح بارسالها أولا • وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث ضلت الطريق ، وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى الى مصر •

لكنه بصـــرف النظر عن موقف الخــديو فقد كانت عواطف المصريين وقلوبهم مع اخوانهم العرب ألمجاهدين فى طرابلس •

وانبرى الشعراء يندون بهذا الغزو وفى ذلك فيقول حافظ ابراهيم :

احـــرقوا الدور اســـتحلوا كل ما
حرمت (لاهاى) فى المهد احــتراما
بـــــارك المطـــــران أعمـــــالهم
فســـلوه بارك القـــوم عـــــلاما
ابهـــــــذا جـــــــاءهم انجيلهم
آمــرا يلقى على الأرض السـلاما ؟

ولميكن شعراء مصـــــر وحدها هم الذين نددوا بهذا الغزو والتنديد بالهجوم الايطالى البشع على أرض عربية شقيقة فقد القى الشعراء العرب فى الأقطار العربية الأخرى قصائدهم بهذه المناسبة ومن ذلك قول فؤاد الخطيب :

يا آل عثمــــان من ترك ومن عــــرب
هبوا فقد صــرخت تحت الثرى الرمم
صونوا طرابلس الغرب ارحموا بلدا
جاءت على اهـله ألعقبـــان والرخم
ياصاحب الســـيف والرجال واحدة
أســـرع الى الحرب لازلت بك القدم
يا صـــــاحب المال والأموال بائدة
بادر الى البذل لاضـــاقت بك الهمم

وأخذت الصحافة المصرية تندد بهذا الاحتلال ٠ وقد أوضحنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب الدور الذى قام به خلال تلك الأحداث حيث كان يعمل محررا فى صحيفة المؤيد ٠ استأجر مسكنا له قريبا لدار المؤيد فى شارع محمد على وصارت اذا جاءت برقيات مهمة عن اخبار الحرب فى طرابلس يوصى من عمال الصحيفة من يحملها له على وجه السرعة وينظم منها الخبر الذى سرعان ما تجمع حروفه ويسلم الى المطبعة لتصدر به ملاحق كصحيفة المؤيد ٠

والباحث الذى يرجع الى اعداد المؤيد فى هذه الفترة يحس مدى نجاحها فى انهاض همم المصريين للتبرع للمجاهدين ومقاطعة

البضائع الايطالية وأصبحت المؤيد خلال هذه الفترة تشيد بجهاد الطرابلسيين ضد الغزو الايطالى وتهاجم لطفى السيد على صفحاتها وكان من شأن ذلك أن سمحت الدولة العثمانية للمؤيد بدخول ولايات الدولة • وينشر ذلك فى ملحق عاجل للجريدة جاء فيه قرر مجلس الوكلاء رفع المنع عن المؤيد وأن يبلغ ذلك لكل الولاة وقالت الأخبار القادمة من الاستانة أن الرأى العام فيها يعتبر المؤيد قوة كبرى من قوى العالم الاسلامى يجب الاستفادة منها على الدوام •

ولم تكن المؤيد وحدها هى التى وقفت تناصر الأشقاء الليبيين فقد كانت صحف الحزب الوطنى بالطبع تجد فى اشتراك مصر فى هذه الحرب وسيلة لكى تتخلص مصر من الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يجدون فى ضياع طرابلس ضياعا لآمالهم فى المستقبل وأن دفاعهم عن بلاد ترتبط معهم برباط الجوار واللغة والدين انما هو دفاع عن أنفسهم لأنه اذا ظفرت ايطاليا بطرابلس الغرب لابد وأن تؤازر انجلترا التى ان لم تؤيدها ظاهرا فى هذه الحرب فقد دفعت سلطاتها فى مصر موقفاً محايدا لكنه مشوب بالعطف على أمانى الايطاليين فى الظفر بهذا الاقليم • وتساءل المصريون ماذا تصنع انجلترا بمصر وقد احتلتها أكثر من ربع قرن اذا رأت من تركيا تخاذلا أمام اعتداء ايطاليا ومن المصريين سكونا واستسلاما لذلك البلاء الواقع • وانه لما كان استقلال مصر الذى اغتصبته انجلترا متوقف على اتصال مصر بالدولة العثمانية ، فان من مصـــلحة المصريين الدفاع عن ذلك الاستقلال والاتصـــال بالدولة العثمانية لأن فيه دفاعا عن هذا الاســـتقلال المسلوب وليس كما تتهم أوربا المصريين بأنهم يحبون الاستعباد بقصد أضعاف الروابط بينهم وبين الدولة العثمانية • وبقاء طرابلس فى يد الدولة العثمانية له علاقة كبيرة بنجاح مصر بينما ضياعها فيه القضاء على مستقبل مصر

ومن ثم رأى الكثيرون أن نيل مصر الاستقلال متوقف على استطاعة الدولة العثمانية الدفاع عن مصر وانه اذا نجح الايطاليون فى الاستيلاء على طرابلس فان معناه تمكين انجلترا من تحقيق بغيتها فى مصر والسودان عملا بمبدأ التعويض وعلى ذلك اذا تطوعت الأمة المصرية جميعها فى هذه الحرب فانها تتطوع دفاعا عن حياتها ومستقبلها واستقلالها ٠

وتولت صحيفة العلم نشر رسائل احتجاج الكثير من المصريين وتبرؤهم من الخط الذى مضى فيه لطفى السيد وحزبه واتهموا الجريدة (بالطليانية) فى الوقت الذى أسهم الكثير من أعضاء حزب الأمة فى الاكتتاب لنصرة المجاهدين وأسست ملك حفنى ناصف جمعية لتمريض الجيش العثمانى على غرار الصليب الأحمر ، بل أن صحيفة الجريدة لم تتوان عن نشر أخبار انتصارات المجاهدين على الايطاليين فى صدر صفحاتها بعناوين ضخمة بل رسمت احدى تلك الانتصارات بانتصار عدوة الثانى اشارة الى ذلك الانتصار الذى تحقق على يد الأحباش وهز الايطاليين فيها هزيمة منكرة سنة ١٨٩٦ ٠ وحاولت الجريدة التوفيق بين مصالح مصر ومصالح جيرانها واخوانها فى الانسانية والدين مع الاحتفاظ بمصريتها فى النهاية ٠

كانت ايطاليا موقنة بمشاعر المصريين تجاه ذلك الاقليم الذى تعرض للغزو وكانت تلح على بريطانيا بضرورة تشديد الاجراءات فى منع أى تسلل عبر مصر ، فالسفير الايطالى فى لندن يبلغ وزير الخارجية البريطانية انه علم نقلا على القنصل الايطالى فى تونس أن ضباطا من الترك ومعهم مبالغ كثيرة من المال سيحاولون الوصول الى برقة من مصر لمساعدة المجاهدين وبناء عليه طلب السفير الايطالى من السلطات البريطانية اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع

ذلك مثلما فعلت الحكومة الفرنسية فى تونس لأن ذلك حسب قوله يعتبر خرقا للحياد من جانب مصر ٠

كما شكا السفير الايطالى فى لندن (المركيز امبريالى) لوزير الخارجية البريطـــانية من أن القوات التركية فى طرابلس وبرقة مازالت على اتصال بحكومة الاستانة وفى نفس الوقت هناك اتصال من المسئولين الأتراك بالمجاهدين وذلك عن طريق رسل راكبة بين السلوم ومرسى مطروح ومن ثم تنقل الأطباء من الاستانة واليها ٠

كما أبلغت الحكومة الايطالية السلطات البريطانية بأن ثلاثة قطارات كانت تنقل حمولة كبيرة انزلتها سفن اثناء الليل وأن هذه القطارات غادرت الإسكندرية صباح يوم ٨ أكتوبر ١٩١١ على خط سكة حديد مريوط وأن هذا العمل القصد منه مساعدة حركة المقاومة التى يقوم بها العرب ضد الايطاليين ٠

واستمر السفير الايطالى فى شكاياته وهاجسه الى حد القول أن هناك خطة تدبر فى باريس بين شخصية تركية وبعض الدوائر الاسلامية لارسال ضباط بريطانيين ممن كانوا فى خدمة الحكومة المصرية متنكرين فى ملابس بدوية الى طرابلس وبرقة عبر مصر بل أكد أن الحكومة الايطالية تلقت تقارير مفادها أن نحو مائة ضابط تركى متنكرين فى زى البدو نجحوا فعلاً فى العبور الى برقة من مرسى مطروح وأن خفر السواحل يسروا مهمتهم وأن هناك ضباط آخرون فى طريقهم الى برقة من مرسى مطروح ٠

وأخذ كتشنر ينفى ذلك ويؤكد أن التقارير الايطالية مبالغ فيها وأنه ليس صحيحا أن مائة ضابط تركى نزلوا الى البر عند بير مطروح وعزا كتشنر هذه الادعاءات الكاذبة الى الصحف المصرية

« ولكن بناء على تعليماتكم » تعليمات جراى (وزير خارجية بريطانيا لكتشنر) لقد عهدت الى رئيس الوزارة المصرية بأن يخطر رؤوف باشا ابلاغ الحكومة العثمانية بذلك كما نصـــحت الخديو بمنع استخدام مثل هؤلاء الضباط لخط السكة الحديد (سكة حديد مريوط) كما أصدرت تعليمات الى خفر السواحل بهذا المعنى ٠٠

واتخذ كتشنر عددا من الاجراءات منها منع الاتصال البرقى مع طرابلس عبر مصر وزيادة القوة التى تتمركز عند السلوم وسيوة مع استمرار خفر السواحل والحدود بمراقبة الحدود بين المنطقتين وتكليف المختصين فى اقتفاء الأثر فى مراقبة الطريق بين الفيوم والاسكندرية • وكان كتشنر يشعر أن المهمة صعبة فى الحيلولة بين الشعب المصرى وبين تسلل أفراده لنصرة اخوانهم المجاهدين فى ليبيا • فهو يعترف أن كل هذه الرقابة لم تمنع تسلل المؤن والعتاد الى اقليم طرابلس الغرب • ففى رســـالة له الى وزير الخارجية البريطانية أن هناك كمية كبيرة الأسلحة أنزلها الترك الى البر فى نقطة ما على الساحل على بعد ستين ميلا غربى الاسكندرية حيث كان فى انتظارها عدد من الابل نقلتها الى الحدود وأفلتت من المراقبة وسوف يحاكم رجال خفر الســـواحل المتورطين فى هذه العملية عسكريا وهم الآن فى السجن وانني أحاول التوصل الى معرفة من عاون فى ذلك وكذلك أصحاب الابل •

واذا كنا قد أشرنا فيما سبق الى مدى ما قدمه أبناء الشعب المصرى من معاونة لأشقائهم فى ذلك الاقليم الذى يربطهم به جوار ولغة ودين وتاريخ فان من أبناء مصر من أنضم الى المجاهدين على الأرض الليبية وقد تناولنا فى كتابنا عن عزيز المصرى ودوره فى الحرب الطرابلسية ونرى أنه لا داع للافاضة فى ذلك • ثم كان ما

حدث من تفكير صفو العلاقات بين المجاهدين وعزيز المصرى عندما أراد الافراج عن بعض الأسرى فعارضه السنوسيون ثم ما كان من رغبته فى تنفيذ أمر الانسحاب الذى صدر له من الحكومة العثمانية ورغبة المجاهدين فى استمرار النضال وسَاءهم أن يخرج عزيز المصرى بجنده النظامى وما كان له أن يفعل غير ذلك وهو الرجل العسكرى الذى يعلم أن واجبه اطاعة مايصدر له من أوامر وأن تسليم الأسلحة التى مع عسكره الى العرب لا يتفق مع الأصول الحربية ولا للأوامر التى صدرت له فكان اطلاق الرصاص من قبل المجاهدين على جندة المنسحبين • ولكنه نجح فى الانسحاب حتى بلغ الاسكندرية فى ١٦ يوليو ١٩١٣ ومنها ذهب الى الاستانة •

وهكذا أحاطت الصعوبات بالمجاهدين فى طرابلس وبرقة من كل جانب فانه الى جانب قطع الموارد عنهم من جهة تونس ومصر فقد انسحبت القوة التركية من برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو وفى هذه الظروف الشديدة صمد السنوسيون فى وجه الطليان ثم اسندت قيادة المجاهدين الى السيد عمر المختار الذى شكل جيشا وطنيا جعل خطته التزام الدفاع والتربص بالعدو حتى اذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شرا وغنموا منهم أسلابا كثيرة من الأسلحة والعتاد ودواب النقل التى كانوا فى حاجة شديدة اليها جميعا • وظل الحال على هذا المنوال حتى كانت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ •

وأحيا اشتعال تلك الحرب العظمى الآمال لدى السنوسيين فى القدرة على الكفاح ضد الايطاليين وشجعهم أن الأتراك أخذوا يشدون أزرهم هذه المرة لرغبتهم فى اتخاذ برقة ميدانا يرسلون منه جيشا كانوا قد اعتزموا اعداده لغزو الأراضى المصرية • ولما كان الألمان

قد قرروا بالاشتراك مع العثمانيين ارسال حملة من الشام للاغارة علَى قناة السويس وغزو مصر من الجهة الشرقية فقد رأوا لضمان نجاحها انه لابد أن يشغل الانجليز فى الوقت نفسه بأمر الدفاع عن مصر من جهة حدودها الغربية حتى توزع قواتهم ويســـهل على العثمانيين والالمان تنفيذ مآربهم ٠

ولكن الهجوم الفاشـــل الذى دبره العثمانيون وأشركوا فيه السيد أحمد الشريف السنوسى على الحدود المصرية لم ينجح كما هو معروف ودخلت القضية الطرابلسية مرحلة جديدة ٠

المراجـــع

١ ـ ابراهيم احمد العدوى :

رشيد رضا الامام المجاهد ســــلسلة اعلام العرب رقم ٢٣ المؤسسة العامة للتاليف والنشر •

٢ ـ احمد زكريا الشلق :

حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية دار المعارف ١٩٧٩ الطبعة الأولى •

٣ ـ احمد عزت عبد الكريم :

حركة التجديد فى المجتمع العربى فى القرن ١٩ محاضرات غير مطبوعة على طلبة الدراسات العربية •

٤ ـ احمد عزت عبد الكريم وآخرون :

دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة مكتبة الانجلو بدون تاريخ •

٥ ـ انيس المقدسي :

الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحـــديث دار العلم للملايين بيروت الطبعة الرابعة ١٩٦٧ .

٦ ـ توفيق برو :

العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى معهد الدراسات العربية ١٩٦٠ .

٧ ـ نوقان قرقوط :

تطور الفكرة العربية فى مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت بدون تاريخ .

٨ ـ حسين فوزى النجار :

احمد لطفى السيد ، سلسلة الأعلام رقم ٤ الطبعة الثانية ١٩٧٥ .

٩ ـ الجمعية التاريخية :

ذكرى البطل ابراهيم باشا ، مجموعة ابحاث ودراســـات تاريخية ١٩٤٨ .

١٠ ـ فؤاد المرسى خاطر :

حول الفكرة العربية فى مصر ، سلسلة مصر النهضة ، ١٩٨٤ .

١١ ـ محمد انيس ورجب حراز :

الشـــرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصـر: الانجلو ١٩٦٧ ٠

١٢ ـ محمد حسين هيكل :

مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الأول ، دار المعارف، بدون تاريخ ٠

١٣ ـ محمد عبد الرحمن برج :

دراسة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر 'لانجلو ، ١٩٧٤ ٠

١٤ ـ محمد عبد الرحمن برج :

عبد الرحمن الكواكبى : الهيئة المصرية ١٩٧٢ ٠

١٥ ـ محمد عبد الرحمن برج :

عزيز المصرى ، الأهرام ، ١٩٧٩ ٠

١٦ ـ محمد عبد الرحمن برج :

محب الدين الخطيب ، هيئة الكتاب ، ١٩٩٠ ٠

١٧ ـ محمد فؤاد شكرى :

الســـــنوسية دين ودولة ، ١٩٤٨ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ٠

١٨ ـ محمد فؤاد شكرى :

ميلاد دولة ليبيا الحديثة ، « جزءان » ، ١٩٥٧ ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ٠

١٩ ـ محمد فؤاد شكرى :

الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر دار الفكر ، بدون تاريخ ٠

٢٠ ـ محمود صالح منسى :

الحملة الايطالية على ليبيا ، دار الطباعة الحديثة القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الفهـــرس

صدر في هذه السلسلة

٩ ـ المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥ ·
د · لطيفة محمد سالم ·

١٠ ـ الأسس التاريخية التكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ـ « دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ ـ ١٨٤٨ » ·
د · نسيمَ مقار ·

١١ ـ حول الفكرة العربية فى مصر ـ « دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر » ·
د · فؤاد المرسى خاطر ·

١٢ ـ صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ ـ ١٩١٢ ـ « دراسة تاريخية » ·
د · يواقيم رزق مرقص ·

١٣ ـ الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور ·
د · سامية حسن ابراهيم ·

١٤ ـ العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ ـ ١٩٢٤ ·
د · أحمد دياب ·

١٥ ـ حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين ·
أحمد عصام الدين ·

١٦ ـ مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال افريقيا ·
د · عبد الله عبد الرازق ابراهيم ·

١٧ ـ رؤية فى تحديث الفكر المصرى ـ « دراسة فى فكر احمد فتحى زغلول » ·
د · احمد زكريا الشلق ·

١٨ ـ صناعة تاريخ مصر الحديث ـ « دراسة في فكر عبد الرحمن الرافعي » ٠
د ٠ حمادة محمود اسماعيل ٠

١٩ ـ الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ من ملفات الخارجية البريطانية ٠
د ٠ لطيفة محمد سالم ٠

٢٠ ـ الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ٠
د ٠ عادل حسين غنيم ٠

٢١ ـ الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ ـ « جمعية الانتقام » ٠
د ٠ زين العابدين شمس الدين نجم ٠

٢٢ ـ قضية الفلاح في البرلمان المصرى ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ ٠
د ٠ زكريا سليمان بيومي ٠

٢٣ ـ فصول في تاريخ تحديث المدن في مصر ١٨٢٠ ـ ١٩١٤ ٠
د ٠ حلمي احمد شلبي ٠

٢٤ ـ الأزهر ودوره السياسي والحضاري في افريقيا ٠
د ٠ شوقي الجمل ٠

٢٥ ـ تطور النقل والمواصلات الداخلية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ ٠
د ٠ فاطمة علم الدين ٠

٢٦ ـ جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية ٠
د ٠ علي شلش ٠

٢٧ ـ السودان في البرلمان المصرى ـ ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ ٠
د ٠ يواقيم رزق مرقص ٠

٢٨ ـ عصر حككيان ٠
أ ٠ د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ٠

٢٩ ـ صغار ملاك الأراضى الزراعية فى مديرية المنوفية ٠ ١٨٩١ ـ ١٩١٣ ٠
د ٠ حلمى احمد شلبى ٠

٣٠ ـ المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ٠
د ٠ سعيده محمد حسنى ٠

٣١ ـ دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ٠
د ٠ عاصم محروس عبد المطلب ٠

٣٢ ـ الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ٠
د ٠ اسماعيل محمد زين الدين ٠

٣٣ ـ دور الأقاليم فى تاريخ مصر السياسى ٠
د ٠ حمادة محمود اسماعيل ٠

٣٤ ـ المعتدلون فى السياسة المصرية ٠
د ٠ أحمد الشربينى السيد ٠

٣٥ ـ اليهود فى مصر ٠
د ٠ نبيل عبد الحميد سيد احمد

٣٦ ـ مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ٠
د ٠ الهام محمد على ذهنى

وبين يديك :

مصر والحركة الوطنية ٠
أ ٠ د / محمد عبد الرحمن برج

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٠٨٩

الترقيم الدولى I.S.B.N.977—01—3076—1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب